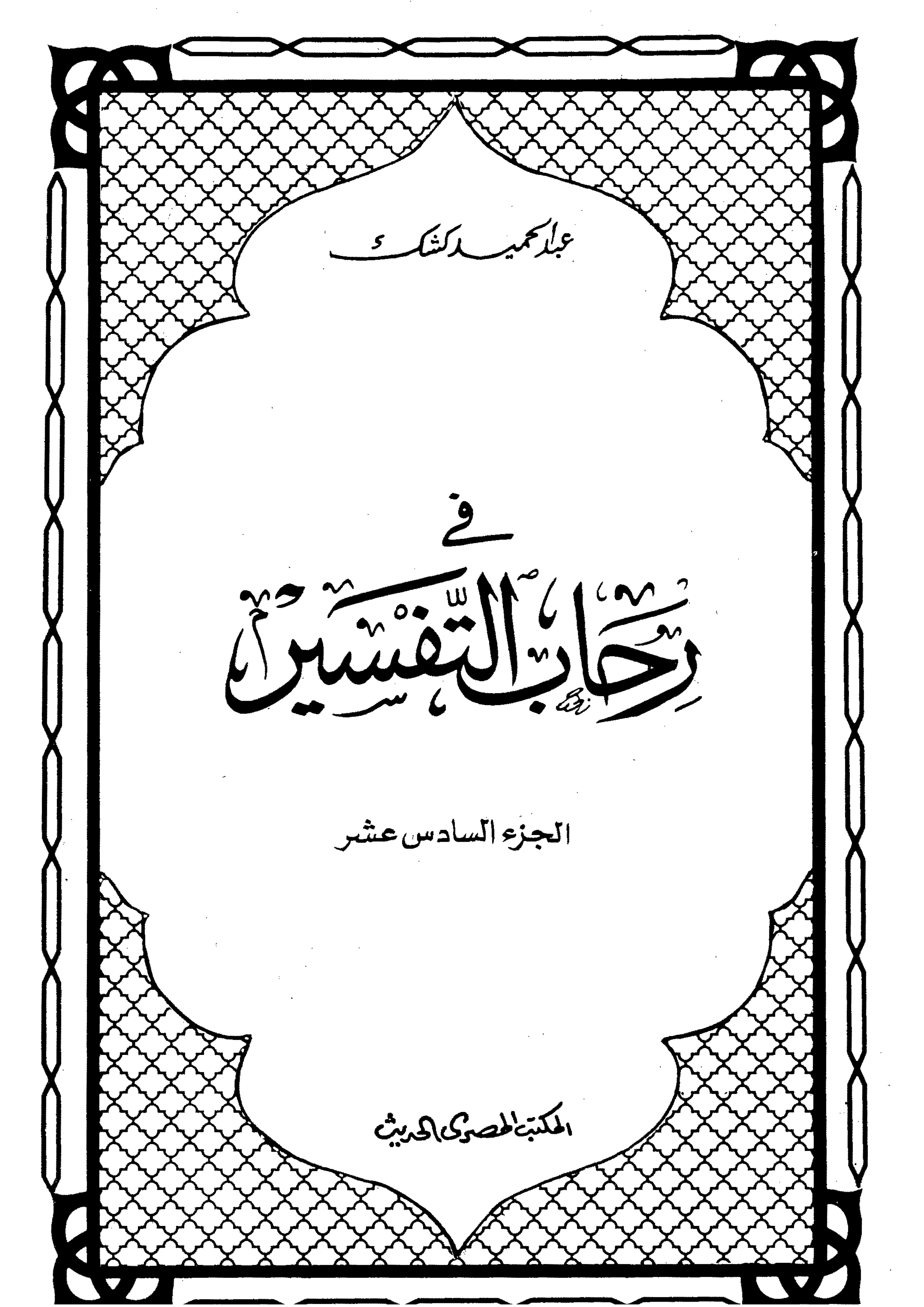


عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء السادس عشر

المكتب المصري الحديث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قصة ذى القرنين

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ
فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾
وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ
وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا
قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ
فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟
أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ
دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **ذكراً** ﴾ : أى نبأ مذكوراً وهو القرآن . ﴿ **ومكنه** ﴾ : ومكن له كنصحه ﴿ **ونصح له** ﴾ : أى مهد له الأسباب وجعله قادراً على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى . ﴿ **سببا** ﴾ : أى طريقاً يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة . ﴿ **حمئة** ﴾ : أى ذات حمأة وهى الطين الأسود . ﴿ **حسناً** ﴾ : أى أمراً ذا حسن . ﴿ **نكراً** ﴾ : أى منكراً فظيعاً . ﴿ **الحسنى** ﴾ : أى المثوبة

الحسنى . ﴿ يسراً ﴾ : أى سهلاً ميسراً غير شاق . ﴿ ستراً ﴾ : أى بناء وكانوا إذا طلعت الشمس تغوروا فى المياه وإذا غربت خرجوا ﴿ خبراً ﴾ : أى علماً يتعلق بظواهره وخفاياه . ﴿ السدين ﴾ : أى الجبلين ، ﴿ يفقهون ﴾ : يفهمون . ﴿ خرجا ﴾ : أى جُعلا من أموالنا على سبيل التبرع والخراج : ما لزمك أداؤه . ﴿ بقوة ﴾ : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس . ﴿ ردماً ﴾ : أى حاجزاً حصيناً . ﴿ والردم ﴾ : أكبر من السد وأوثق . يقال ثوب مردَّم : أى فيه رقاع فوق رقاع . ﴿ وزبر ﴾ : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة : وهى القطعة العظيمة . ﴿ الصدفين ﴾ : واحدها صدف وهو جانب الجبل . ﴿ قطراً ﴾ : أى نحاساً مذاباً وقيل رصاصاً مذاباً . ﴿ أن يظهروه ﴾ : أى أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته . ﴿ رحمة ﴾ : أى أثر رحمة . ﴿ دكاء ﴾ : أى مثل دكاء وهى الناقة لا سنام لها والمراد بها الأرض المستوية . ﴿ حقاً ﴾ : أى ثابتاً واقعاً لا محالة . ﴿ يموج ﴾ : أى يضطرب اضطراب البحر . ﴿ والصور ﴾ : قرن ينفخ فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

هذه القصة رابعة ثلاث من القصص التى ذكرت فى هذه السورة ، وقد قدمنا أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبى ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ؟ وعن فتية لا يُدرَى ما صنعوا ؟ وعن الروح ؟ فنزلت سورة الكهف .

ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى ، تلميذ أرسطاطاليس الفيسلوف المسمى بالمعلم الأول ، الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية ، وكان من أهل مقدونيا ، وحارب الفرس ، واستولى على ملك دارا ، وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند ، وحارب هناك ، ثم حكم مصر وبنى الاسكندرية .

ويرى أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :

أنه من حمير ، واسمه أبو بكر بن إفريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط فمر بتونس ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه .

والدليل على أنه حميرى أن الأذواء إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ ق. م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية ، وملوكها يسمون التبابعة ، واحدهم تبع (بضم التاء وتشديد الباء) .

يأجوج ومأجوج

﴿ يأجوج ﴾ : هم التتر . ﴿ ومأجوج ﴾ : هم المغول . .

وأصلهما من أب واحد يسمى « ترك » وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غرباً بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيراً ما أفسدوا فى الأرض ، ودمروا كثيراً من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى ، وذهبت إلى أوروبا فى العهد القديم ، كأمة التحيت والسمريان والهون ، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة « تموجين » الذى لقب نفسه « جنكيز خان ـ ملك العالم » بلغة المغول .

فخرج فى أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة ، والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين ابن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خوارزم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يسمع بمثله فى التاريخ .

ولما مات جنكيز خان قام مقامه ابنه « أقطاى » وأغار ابن أخيه « باتو » على بلاد الروس سنة **٧٢٣ هـ** ، ودمر بولنيا وبلاد المجر ، وأحرق وخرب .

وبعد أن مات أقطاى قام مقامه « جالوك » فحارب الروم ، وألزم ملكها دفع الجزية .

ثم مات « جالوك » فقام مقامه ابن أخيه « منجو » فكلف أخويه « كيلاى » و« هولاكو » أن يستمرا فى طريق الفتح ، فأخضع كيلاى بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام ، سالت فيها الدماء أنهاراً ، وطرحوا كتب العلم فى دجلة ، وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا وأوروبا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشأوا أربع ممالك ، فاختصت أسرة كيلاى بالصين والمغول ، وملك جافاقاى أخو أقطاى تركستان ، وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطىء نهر فلجا ، وصارت الروسيا تدفع لها الجزية زمناً طويلاً ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس وبغداد حتى بلاد الشام ، وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف ، وابن خلدون ، ورسائل إخوان الصفا .

سـد ذى القرنين

كانت البلاد التى شرقى البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة « السلاف » وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة « باب الأبواب » أو « دربت » بجبل قوقاف ، وقد كشفوه فى القرن الحاضر ، وهو غير السد الشهير الذى بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون فى عمالة « بلخ » واسمه « باب الحديد » بمقربة من مدينة « ترمذ » وقد اجتازه تيمور لنك بجيشه .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقاً ، وهى إحدى المعجزات التى أيدها التاريخ ، وعلم تقويم البلدان .

وقد قال النبى ﷺ : (ويل للعرب من شر قد اقترب)[١] .

وقد صدق رسول الله ، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب ، وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقى خليفة رسمى فى مصر ، وزال ملكهم بتاتا فى حدود الألف ، وتفرق ملك الاسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين فى الهند والصين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ﴾ : أى تسألك قريش بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

﴿ **قل سأتلوا عليكم منه ذكراً** ﴾ : أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصاً وافياً جامعاً لما تريدون ، أعلمنيه ربى وأخبرنى به .

ثم فصل ذلك فقال : ﴿ **إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً** ﴾ :

أى مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ، وآتيناه من كل شىء أراده من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقاً يوصله إليه ، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التى توصله إلى ذلك .

﴿ **فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة** ﴾ :

أى فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقاً يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه ، ووقف على حافة المحيط الأطلنطى « المحيط الأطلسى » وجد الشمس تغرب فى عين حمئة ، وطين أسود .

وخلاصة ذلك :

أنه بلغ بلاداً لا بلاد بعدها . تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلاّ ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مراكش ، ووصل إلى البحر ، فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون ، كأنه طين وماء .

﴿ **ووجد عندها قوماً** ﴾ : أى ووجد عند تلك العين قوماً كفاراً ، فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله :

﴿ **قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً** ﴾ :

أى قلنا له بطريق الإلهام : إما أن تقتلهم إن هم لم يقروا بوحدانيتى ، ويذعنوا لك فيما تدعوهم

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٧ ، وفى المناقب : ٢٥ ، وفى الفتن : ٤ ، ٢٨ . ومسلم فى الفتن : ١ . وأبو داود فى الفتن ١ . والترمذى فى الفتن : ٢٣ . وابن ماجة فى الفتن : ٩ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٤١ ، ٥٣٦ ، ٥٤١ ، وفى ٦ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

إليه من طاعتى ، وإما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد ، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام .

﴿ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ :

أى قال ذو القرنين لبعض خاصته وبطانته : أما من ظلم نفسه فأصر على الشرك بربه ، فسنعذبه بالقتل ، ثم يرجع إلى ربه فى الآخرة فيعذبه عذاباً منكراً فى نار جهنم .

﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ :

أى وأما من صدق بالله ووحدانيته ، وعمل عملاً صالحاً فى الدارين ، فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقا على تلك الخلال الجميلة التى عملها فى دنياه ، وسنعلمه فى الدنيا ما يتيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى ربه ، ويلين له قلبه ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

﴿ ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ :

أى ثم قفل راجعاً من مغرب الشمس ، وسلك طريقاً موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من المعمور وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكنّهم ، ولا أشجار تظلهم وتسترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لا تحمل بنيانا ، بل لهم سروب يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك :

إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ، ووجد قوماً لا لباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء ، أو فى سراديب فى الأرض .

﴿ كذلك ﴾ : أى إن أمر ذى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن ، وبسطة الملك ، مما لم يتح لكثير غيره .

﴿ وقد أحطنا بما لديه خُبْرا ﴾ : أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا شىء منها ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض ، كما قال : **﴿ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾**[1] .

وخلاصة ذلك : أنه كما وصف ، وفوق ما وصف ، بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

(١) الآية ٥ من سورة آل عمران .

﴿ ثم أتبع سببا ﴾ : أى ثم سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ، آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال .

﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ :

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون يفهمون كلام أتباعه ، ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ، إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وفحوى الحال .

﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ :

أى قال مترجموهم : إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب ، وأخذ الأقوات ، وسائر ضروب الإفساد .

﴿ فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾ :

أى فهل تحب أن نجعل لك جعلا من أموالنا ، فتجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا ؟

وخلاصة ذلك : أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً .

﴿ قال ما مكنى فيه ربى خير ﴾ : أى قال ذو القرنين : إن ما مكننى فيه ربى من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال ، خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، وهذا نحو ما قاله سليمان عليه السلام : ﴿ أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ﴾[1] .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا ، ما دامت قادرة على إغاثتها .

وخلاصة ذلك: ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

﴿ فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ :

أى ولكن ساعدونى بفعلة ، وصنّاع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سداً منيعاً وحاجزاً حصيناً ، أمنع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

﴿ آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً ﴾ :

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النمل .

أى جيئونى بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ يبنى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا جعل ما بين جانبى الجبلين من البنيان مساوياً لهما فى العلو ، قال للعَمَلة : انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ، ففعلوا وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجاً ، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى ، فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد ، وصار جبلاً صلداً .

﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ :

أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد ، لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته .

﴿ قال هذا رحمة من ربى ﴾ :

أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزاً بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، يمنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فساداً .

﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ﴾ :

أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضاً مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

قوله تعالى : **﴿ وكان وعد ربى حقاً ﴾ :**

أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقاً ثابتاً لا ريب فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيز خان وسلائله ، فعاثوا فى الأرض فساداً من الشرق والغرب ، وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيز خان أن سلطان خوارزم السلجوقى قتل رسله . وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم ، وأغار على أطراف بلاده ، فاغتاظ وكتب إلى السلطان كتاباً قال فيه : كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى ؟ . أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة ؟ أو ما جاءكم عن نبيكم (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيكم وعن ظلم الضعيف غويكم أو مابلغكم مرشدوكم (اتركوا الترك ما تركوكم)[1]) .

وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ، ونبيكم قد أوصى به إلا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياى إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم وينسلون عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : (لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا

(١) أخرجه أبو داود فى الملاحم : ٨ .

وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها . قالتها زينب فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون . فقال : نعم إذا كثر الخبث)[١] .

﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ﴾ .

أى ويوم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ، ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله فى سورة الأنبياء : **﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾**[٢] أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون فى النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيز خان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى .

﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾ :

أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ فى الصور ، وجمعنا الناس جمعاً ، وأحضرناهم للحساب ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين * . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾[٣] .

مواقف ومشـــاهد

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

المفردات : **﴿ عرضنا ﴾** : أى أظهرنا وأبرزنا . **﴿ غطاء ﴾** : أى غشاوة محيطة بها . **﴿ عن ذكرى ﴾** : أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدى وتمجيدى . **﴿ أولياء ﴾** : أى معبودات يقونهم بأسى . **﴿ أعتدنا ﴾** : هيأنا . **﴿ نزلا ﴾** : أى طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم . **﴿ ولقائه ﴾** : أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك . **﴿ الهزؤ ﴾** : السخرية والاحتقار .

---

(١) أخرجه البخارى فى الفتن : ٤ ، ٢٨ . ومسلم فى الفتن : ١ ، ٢ والترمذى فى الفتن ٢١ ، ٢٣ . وابن ماجه فى الفتن : ٩ . والامام مالك فى الكلام : ٢٢ . الامام أحمد فى ٦ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٢) الآية ٩٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

قوله تعالى : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾ :

أى أظهرناها واضحة أمام المجرمين لا يستطيعون إنكارها ، قال تعالى : ﴿ يوم يُدَعون إلى نار جهنم دعًا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[١] .

وقال جلَّ سشأنه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٢] .

جاء فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك) .

وجلَّ جناب الحق إذ يقول : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا حميماً وغساقاً * جزاء وفاقا * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شىء أحصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٣] .

إن هؤلاء الطاغين حجبت أعينهم عن رؤية الحق ، فكانت فى غطاء مانعا لهم من ذكر الله ومعرفته ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً ، ولا يعقلون عن أمر الله أمراً ولا نهياً ، كما قال جلَّ شأنه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾[٤] .

كما قال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٥] .

وكما قال جل شأنه : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[٦] .

وهذا جزاء عادل لكل من قال الله فيهم : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا** ﴾ :

---

(١) الآيتان ١٣ - ١٦ من سورة الطور .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .
(٤) الآية ١٠ من سورة الملك .
(٥) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٧) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزخرف .

أغفل هؤلاء فظنوا أن يتخذوا عبادى كالملائكة ، والمسيح ، وعزير ، أولياء ومعبودات لهم من دونى ليكونوا لهم أعوانا وأنصارا ، إنهم بذلك قد تنكبوا الطريق . وحادوا عن الصراط السوى .

لقد نسوا أو تناسوا أنا أعتدنا لهم جهنم ، مكاناً ينزلون به يأكلون ويتمتعون فى هذا النزل من جحيم وزقوم وغسلين وغسَّاق وحميم وضريع ، قال تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾(١) فلو كانوا يعقلون عن الله أحكامه لآمنوا به وحده ، وما اتخذوهم أولياء .

قوله تعالى : **﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾** .

أى قل هل نخبركم بالأخسرين أعمالا ؟

ثم أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال إجابة شافية وافية كافية ، تشمل كل من عبد الله على غير الطريق التى جاء بها رسوله .

قال تعالى : **﴿ الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾** :

هؤلاء لا نصيب لهم فى الآخرة كما قال جلَّ شأنه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾(٢) :

إذ لكى يقبل الله العمل لابد أن يكون صوابا خالصا ، فهؤلاء الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه لم يكونوا على صواب ، ولم يكونوا مخلصين ، فحقَّ فيهم قوله جلَّ شأنه : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية ﴾(٣) .

إن هؤلاء الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، هم الذين حكم الله عليهم بقوله : **﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾** :

والآيات هنا هى الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته وكماله ، سواء أكانت كونية أو تنزيلية ، ولما كان أمرهم كذلك كان جزاؤهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : **﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾** . إذ ليس لديهم من الأعمال ما يثقل موازينهم ، فهم الأخسرون أعمالا الذين خفت موازينهم ، كما قال جل شأنه : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾(٤) .

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ـ وقال ـ اقرءوا إن شئتم **﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾**)(٥) .

---

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٢ ـ ٥ من سورة الغاشية .
(٤) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون .
(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٨ : ٦ . ومسلم فى المنافقين : ١٨ .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها) :

قال : وقرأ ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ .

روى البزار بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له فلما قام على النبى ﷺ قال : (يا بريدة هذا ممن لا يقيم له يوم القيامة وزنا) .

ثم بين الله تعالى جزاء هؤلاء فقال : ﴿ **ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا** ﴾ :

فقد بيَّن سبحانه وجه العدالة فى جزاء هؤلاء ، فقال ﴿ بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ فالكفر بالله يحبط الأعمال ، فما بالك إذا أضافوا إلى كفرهم الاستهزاء بآيات الله ورسله ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾(١) .

قال جلَّ شأنه : ﴿ ألم تكن آياتى تُتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾(٣) .

جــزاء المؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

المفردات : ﴿ **الفردوس** ﴾ : البستان . ﴿ **حولا** ﴾ : أى تحولا . ﴿ **والمداد** ﴾ : ما يمد به الشىء ، واختُصَّ بما تمد به الدواة من الحبر . ﴿ **كلمات ربى** ﴾ : معلوماته غير المتناهية . ﴿ **والرجاء** ﴾ : طمع حصول ما فيه من مسرة مستقبلة ﴿ **ولقاء ربه** ﴾ : هو البعث وما يتبعه .

(١) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة التوبة .
(٢) الآيات ١٠٥ ـ ١١٠ من سورة المؤمنون .
(٣) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة المطففون .

بعد أن بين الله تعالى جزاء الكافرين قفَّى بجزاء المؤمنين ، وهكذا يقرن الوعد بالوعيد ليتم الترغيب والترهيب والخوف والرجاء فى صورته الكاملة فإذا كان جزاء الكافرين جهنم ، فإن الذين آمنوا ، وضموا إلى الإيمان الأعمال الصالحة أعد الله لهم جنات الفردوس نزلا وضيافة ، وما أدراك ما الفردوس ؟! .

روى سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ : (الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها) .

وجاء فى الصحيحين : (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة)(١) . وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس . فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى)(٢) .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
فاعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾ :

وتلك نعمة أخرى يمن الله بها على عباده المؤمنين نعمة الخلود فى الجنة ، ففى الخلود استقرار وأمن وطمأنينة وسكينة وأمان ، قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٤) .

فكيف يبغون تحولا عن هذا المقام الأمين ، وهم فيه آمنون ، لا صخب ولا نصب ولا غل ولا حسد ولا شحناء ولا بغضاء : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله * لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٣٩ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، وفى ٥ : ٢٤١ ، ٣٢١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٢ . والترمذى فى الجنة : ٤ ، وفى تفسير سورة ٥٧ ، ٦٩ : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٧ ، وفى ٢ : ١٩٧ .

(٣) الآيات ٤٥ - ٤٨ من سورة الحجر . (٤) الآيات ٥١ - ٥٧ من سورة الدخان . (٥) الآية ٤٣ من سورة الأعراف .

قوله تعالى : **﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾** :

لو تحولت أشجار الأرض إلى أقلام يُكتب بها ، وتحول البحر إلى مداد ، ويمده من بعد ذلك سبعة أبحر لنفد البحر والأبحر التى تمده ، وما نفدت كلمات الله التكوينية . ومعلوماته التى سبقت فى علمه الأزلى ، لأن تلك الأقلام والبحار متناهية ، وعلم الله لا يتناهى .

فما السموات والأرض بالنسبة للكرسى إلا حلقة فى فلاة . وما الكرسى بالنسبة للعرش إلا حلقة فى فلاة ، وما العرش بالنسبة لما فى علم الله إلا حلقة فى فلاة : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم * ما خلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير * ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير * ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[١] .

وجلَّ جناب الحق إذ يقول : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٢] .

وإذ يقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً ﴾[٣] .

ذكر الشيخ المراغى فى تفسيره لقوله تعالى : **﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾** :

أثبت العلم الحديث ما يتبين منه أن فى كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية مالا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتدى إليها العلماء فى العصر الحاضر : قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة « بنسلفانيا » بأمريكا فى ٧ من مارس ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

١ - إن عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .

٢ - إن الإنسان لم يعش على الأرض منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .

٣ - إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريباً ، وتدور الأرض حولها كما هى الآن .

٤ - الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الانسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .

---

(١) الآيات ٢٧ - ٣٠ من سورة لقمان .

(٢) الآيتان ٤٩ - ٥٠ من سورة القمر .

(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

٥ ـ مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل فى علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لا نهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفى مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض فى الماضى .

٦ ـ الأجرام التى حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذى بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لا نهاية له .

٧ ـ الأجرام العلوية التى نراها والتى لا نراها كروية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .

٨ ـ الإشارات اللاسلكية التى تنبعث من جهاز لاسلكى كبير تدور حول الكرة الأرضية فى أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدأ سفرنا .

٩ ـ إننا لو صنعنا منظاراً قوياً (تلسكوبا) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التى كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .

١٠ ـ إن الإنسان اليوم طفل فى العلوم ، وربما علم فى المستقبل مالا يتخيله الآن .

١١ ـ إن سرعة النور فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله فى ذلك الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شىء واحد فى جوهرهما ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون نسمة ، أى إن النور يدور فى هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض فى سبع ثانية فما أبعد النسبة بين سبع ثانية وبين مائة ألف مليون سنة . إلا أن الأرقام لا تقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروى .

١٢ ـ الشمس أكبر من الأرض حجما بمليون وثلثمائة ألف مرة ، وما هى إلا حبة رمل على شاطىء هذا الفضاء الكروى ، وهى واحدة من أسرة من أسر الكائنات التى فى الفضاء الكروى التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة وشمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

١٣ ـ إن هناك سُدُما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تم نشوءها أو لا تزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

١٤ ـ يقول (هويل) إن مِرْقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمريكا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، وفيها من المادة ما يكفى لخلق ملايين الشموس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفراً ، وهذا العدد يغطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .

١٥ ـ أضعف النجوم المعروفة هى نجم (وولف) ونوره جزء من عشرين جزءا من نور الشمس ،

ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس . وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض وأكبر النجوم الجوزاى ، وهى أكبر من الشمس خمسة وعشرين مليون مرة ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباحب) .

١٦ - إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصاناً من كل بوصة مربعة ، وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشع نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

١٧ - إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى **٢٥٠** مليون طن فى الدقيقة ، ففى اليوم تفقد **٣٦٠** ألف مليون طن .

١٨ - يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين السنين دون أن تنطفىء .

١٩ - عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف مليون سنة إلى عشرة آلاف مليون سنة أ. هـ .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شىء منها ، ولا يزال الناس فى عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) .

قوله تعالى : **﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾** :

روى الطبرانى بسنده عن عمرو بن قيس الكوفى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت فى سورة الكهف .

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه (قل) لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم (إنما أنا بشر مثلكم) فمن زعم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى عما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذى القرنين مما هو مطابق فى نفس الأمر لولا ما أطلعنى عليه وإنما أخبركم **﴿ أنما إلهكم ﴾** الذى أدعوكم إلى عبادته **﴿ إله واحد ﴾** لا شريك له .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أى ثوابه وجزاءه الصالح **﴿ فليعمل عملا صالحاً ﴾** ما كان موافقا لشرع الله **﴿ ولايشرك بعبادة ربه أحداً ﴾** وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له .

وهذان ركنا العمل المتقبل ، لابد أن يكون خالصاً لله ، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ .

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر عن عبد الكريم الجزرى عن طاوس قال : قال رجل « يا رسول الله إنى أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا حتى نزلت هذه الآية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ » .

روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : (من سمّع سمّع الله به ، ومن يرائى يرائى الله به)(١) .

أى من عمل عملاً مراءاة للناس ، وليشتهر به شهرّه الله به يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشِرْكَه »(٢) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال : (كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا ، فكثر المحبوسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : (ما هذه النجوى ؟) قال : فقلنا : تبنا إلى الله أى نبى الله ، إنما كنا فى ذكر المسيح وفرقنا منه . فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ قال : قلنا بلى . قال : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل ليصلى لمكان الرجل)(٣) .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد يعنى ابن بهرام قال : قال شهرُ بن حوشب : قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة ابن الصامت فأخذ يمينى بشماله ، وشمال أبى الدرداء بيمينه ، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى والله أعلم بما نتناجى به ، فقال عبادة ابن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين يعنى من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، ونزله عند منازله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت .

قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعوف بن مالك فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من الشهوة الخفية والشرك)(٤) فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرا ، ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها ، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد ؟؟ فقال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله ، إن من صلى أو صام أو تصدق له لقد أشرك . فقال شداد : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٦ ، وفى الأحكام : ٩ . ومسلم فى الزهد : ٤٧ ، ٤٨ . والترمذى فى النكاح : ١١ . وفى الزهد : ٤٨ . وابن ماجة فى الزهد : ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٠ ، وفى ٥ : ٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ . والإمام فى الزهد : ٢١ .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى الزهد : ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٦ .

صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك)[١] . قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ، ويدع ما أشرك به ، فقال شداد عند ذلك : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بى من أشرك بى شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، أنا عنه غنى)[٢] .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبادة بن نسى عن شداد بن أوس رضى الله عنه أنه بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال شىء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكانى سمعت رسول الله ﷺ يقول (أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية) .

قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك قال : (نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه)[٣] .

ورواه ابن ماجة من حديث الحسن بن ذكران .

وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله يوم القيامة أنا خير شريك من أشرك بى أحدا فهو له كله) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال (أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك)[٤] .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : (الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ، وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) أخرجه الترمذى وابن ماجة .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من سمَّع سمع الله به ومن راءى راءى الله به) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : (من يرائى يرائى الله به ومن يسمع يسمع الله به) .

---

(١) اخرجه الإمام احمد فى ٤ : ١٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

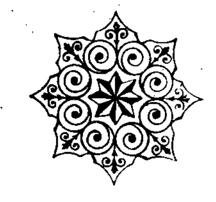
(٣) اخرجه الأيمام احمد فى : ١٢٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة فيقول الله : ألقوا هذا : واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب والله ما رأينا منه إلا خيرا . فيقول : إن عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى) .

وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل) .

وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : (من قرأ فى ليلة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية . كان له من النور ما بين عدن إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة) .



سـورة مريم

مقدمـة :

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية إجماعياً ، وعدد آياتها تسع وتسعون ، وكلماتها ألف ومائة واثنتان وتسعون ، وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنان .

ولهذه السورة إسمان : سورة كهيعص لافتتاحها بها ، وسورة مريم لاشتمالها على قصتها مفصلة .

مقصـود السـورة

معظم المراد منها على سبيل الإجمال ، وعد الله العباد بالكناية والهداية ، وإجابة دعاء زكريا والمنة عليه بولد : يحيى ، وإعطائه علم الكتاب ، وذكر عجائب ولادة عيسى وأمه ، والخبر عن أحوال القيامة .

ونصيحة إبراهيم لآزر ، ومناظرة آزر له .

والإشارة إلى قربة موسى ، وذكر صدق وعد إسماعيل ، وبيان رفعة درجة إدريس ، والشكوى من الولد الخلف ، وحكاية أهل الجنة ، وذل الكفار فى القيامة ، ومرور الخلق على عقبة الصراط ، وابتلاء بعضهم بالعذاب .

والرد على الكفار فى افتخارهم بالمال ، وذل الأصنام . وعبادها فى القيامة .

وبيان حال أهل الجنة والنار وصعوبة قول الكفار فى جرأتهم على إثبات الولد والشريك للواحد القهار ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه ، وتهديد الكفار بعقوبة القرون الماضية ، فى قوله : **﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾** .

المتشـابهات

قوله تعالى :

﴿ ولم يكن جباراً عصيا ﴾ .

وبعده :

﴿ ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ .

لأن الأول فى حق يحيى ، وجاء فى الحديث : (ما من أحد من بنى آدم إلا أذنب أو هم بذنب إلا يحيى بن زكريا ، عليهما السلام) ، فنفى عنه العصيان .

والثانى فى حق عيسى عليه السلام ، فنفى عنه الشقاوة ، وأثبت له السعادة ، والأنبياء معصومون من الذنوب .

قوله تعالى : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾ فى قصة يحيى ﴿ والسلام علىّ ﴾ فى قصة عيسى ، فنكر فى الأول ، وعرف فى الثانى ، لأن الأول من الله تعالى والقليل منه كثير ، كقول القائل : قليل منك يكفينى ولكن قليلك لا يقال له قليل ولهذا قرأ الحسن ﴿ اهدنا صراطاً مستقيما ﴾ أى نحن راضون منك بالقليل .

والثانى من عيسى ، والألف واللام لاستغراق الجنس ، وقيل إنما أدخل الألف واللام ، لأن النكرة إذا تكررت تعرفت .

وقيل : نكرة الجنس ومعرفته سواء ، تقول : لا أشرب ماء ، ولا أشرب الماء ، فهما سواء .

قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا ﴾ وفى حم ﴿ للذين ظلموا ﴾ لأن الكفر أبلغ من الظلم .

وقصة عيسى فى هذه السورة مشروحة ، وفيها ذكر نسبتهم إياه إلى الله تعالى حين قال : ﴿ ما كان لله أن يتّخذ مِن ولدٍ ﴾ فذكر بلفظ الكفر ، وقصته فى الزخرف مجملة ، فوصفهم بلفظ دونه وهو الظلم .

قوله تعالى : ﴿ وعمل صالحاً ﴾ وفى الفرقان ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ ، لأن ما فى هذه السورة أوجز فى ذكر المعاصى ، فأوجز فى التوبة ، وأطال (هناك فأطال) ، والله أعلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن
وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ
ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ
إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ

عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها لسورة الكهف أنها اشتملت على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص ، كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

المفردات : ﴿ **زكريا** ﴾ : (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا . ﴿ **نادى ربه** ﴾ : أى دعاه . ﴿ **خفيا** ﴾ : أى مستوراً عن الناس لم يسمعه أحد منهم . ﴿ **وهن العظم** ﴾ : ضعف ورق من الكبر .. إذ قد بلغ خمساً وسبعين سنة أو ثمانين . ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه . ﴿ **شقياً** ﴾ : يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة .

﴿ **الموالى** ﴾ : هم عصبة الرجل . ﴿ **من ورائى** ﴾ : أى من بعدى ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين . ﴿ **ولياً** ﴾ : أى ولداً من صلْبى . ﴿ **ويعقوب** ﴾ : هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم وكان زكريا متزوجا أخت مريم بنت عمران . ﴿ **رضيا** ﴾ : أى مرضيا عندك قولا وفعلا . ﴿ **سميا** ﴾ : أى شريكاً له فى الاسم فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله . ﴿ **أنى** ﴾ : أى كيف . ﴿ **عتيا** ﴾ : من عتا يعتو : أى يبست مفاصله وعضامه . ﴿ **شيئاً** ﴾ : أى موجوداً . ﴿ **آية** ﴾ : علامة . ﴿ **سوياً** ﴾ : أى سوى الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس . ﴿ **المحراب** ﴾ : المصلى . ﴿ **أوحى** ﴾ : أى أومأ وأشار . ﴿ **سبحوا** ﴾ : أى صلوا . ﴿ **بكرةً وعشيا** ﴾ : صلاة الفجر والعصر . ﴿ **الكتاب** ﴾ : هو التوراة . ﴿ **والقوة** ﴾ : الجد والاجتهاد . ﴿ **والحكم والحكمة** ﴾ : الفقه فى الدين . ﴿ **وحنانا** ﴾ : أى عطفاً على الناس . ﴿ **وزكاة** ﴾ : أى طهارة من الذنوب والآثام . ﴿ **تقياً** ﴾ : أى مطيعاً لأمر ربه منتهياً عما نهى عنه . ﴿ **وبراً بوالديه** ﴾ : أى كثير البر والإحسان إليهما . ﴿ **جباراً** ﴾ : أى متعالياً عن قبول الحق والإذعان له . ﴿ **عصياً** ﴾ : أى مخالفاً أمر مولاه . ﴿ **سلام** ﴾ : أى أمان من الله عليه .

روى محمد بن إسحق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة : أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

قوله تعالى : ﴿ **كهيعص** ﴾ : حروف هجائية تشير إلى إعجاز هذا القرآن العظيم الذى نزل بها : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ **ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً** ﴾ : أى مما نقصه عليك فى هذا الكتاب يا محمد ، ذكر رحمة ربك عبده ونبيه زكريا ، حين نادى ربه ودعاه نداء ودعاء خفياً .

وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد ، وقت الكبر والشيخوخة ، فماذا قال زكريا فى دعائه ؟

﴿ **قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً * وإنى خفتُ الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً** ﴾ .

أى ضعفت وخارت القوى ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ أى اضطرم المشيب فى السواد ، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة .

﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقياً** ﴾ لأنك لم ترد دعوتى كما عهدتك سميعاً مجيباً قريباً تجيب المضطر إذا دعاك ، وتكشف السوء عمن ناداك .

قوله تعالى : ﴿ **وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً** ﴾ .

أى خشيت العصبات من بعدى أن يغيروا ويبدلوا فى ميراث النبوة ، فأسألك ولداً صالحاً يرثنى ويرث من آل يعقوب ويقوم على ميراث النبوة قياماً صحيحاً مستقيماً ﴿ **واجعله رب رضياً** ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك ، تقياً نقياً ، لا جباراً ولا عصياً ولا شقياً .

قوله تعالى : ﴿ **يا زكريا إنَّا نبشِّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً** ﴾ .

أى فاستجاب الله له وأجاب دعاءه ، فبشرته الملائكة بغلام اسمه يحيى ، وذلك كقوله جل شأنه فى سورة آل عمران ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **لم نجعل له من قبل سمياً** ﴾ : أى لم نسم أحداً قبله بهذا الاسم .

﴿ **قال ربى أنَّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً** ﴾ .

أى على أى وضع ، وعلى أية حال سيولد لى ، هل سأعود شاباً وتعود امرأتى كذلك ، أم ستهب لنا الغلام ونحن على ما نحن عليه من كون امرأتى عاقراً ، ومن كونى قد طعنت فى السن ، ووهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، إذاً فلم يكن هذا الاستفهام استفهام استبعاد شىء عن قدرة الله ، بل كان استفهاماً عن الحال التى سيكون عليها عندما يرزق الغلام ، لذا جاء الرد ﴿ **قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾ .

أى الشأن والأمر كما أراد الله فإن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإن الذى

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة آل عمران .

أوجدك من العدم قادر أن يهبك الغلام ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾(١)

وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً .

﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ :

أى اجعل لى علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى ، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾(٢) .

﴿ قال آيتك ﴾ : أى علامتك **﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً ﴾** أى أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة .

قال بعض المفسرين : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة .

وقال زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة .

كما قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلاَّ رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار ﴾(٣) .

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ : أى الذى جاءته البشرى فيه ، فأشار إلى قومه إشارة موحية بالأمر لهم أن يسبحوا بكرة وعشيا ، طرفى النهار : أوله وآخره .

وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام ، أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب ، فى مجرى العادة ، فسروا به .

قوله تعالى : **﴿ يا يحيى خُذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً * وبَراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم وِلدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبْعث حياً ﴾** :

أى فلما ولد له هذا الغلام ، وبلغ مبلغ العقلاء ، قلنا له : يا يحيى خُذ الكتاب بقوة ، أى التوراة بقوة وعزيمة وجد وحرص واجتهاد ، **﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾** : أى الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلهذا أنزل الله **﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾** .

وقوله تعالى : **﴿ وحنانا من لدنا ﴾** أى رحمة من عندنا ، وزكاة أى طهراً ونقاء وكان تقياً يخاف ربه ويخشاه .

---

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٤١ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ : وهذا أثر من آثار رحمة الله به ، فقد كان براً وفياً رحيماً مطيعاً لوالديه ، كما وهبه الله من الزكاة والطهر والصفاء والنقاء والتقوى ولم يكن جباراً ولا غليظاً ولا فظاً ، ولم يكن عصياً متمرداً على حدود الله ، وسلامٌ عليه من الله يوم ولد ، وأمان وسكينة عليه يوم يموت ، ورحمة ونجاة له يوم يبعث حياً ، وكذلك نجزى المحسنين .

قصـــة مريم

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

المفردات : ﴿ **انتبذت** ﴾ : أى اعتزلت وتنحت . ﴿ **مكاناً شرقياً** ﴾ : أى شرقى بيت المقدس . ﴿ **حجاباً** ﴾ : أى ساتراً توارت به منهم . ﴿ **روحنا** ﴾ : هو جبريل عليه السلام . ﴿ **سوياً** ﴾ : أى سوى الخلق كامل البنية . ﴿ **أعوذ** ﴾ : أى أعتصم وألتجيء . ﴿ **تقياً** ﴾ : أى مطيعاً . ﴿ **لأهب لك** ﴾ : أى لأكون سبباً فى هبته . ﴿ **غلاماً** ﴾ : أى ولداً ذكراً . ﴿ **زكياً** ﴾ : أى طاهراً من الأدناس والأرجاس . ﴿ **أنى** ﴾ : أى كيف يكون ذلك . ﴿ **آية** ﴾ : أى علامة على قدرة خالقكم . ﴿ **مقضياً** ﴾ : أى محتوماً قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

بعد أن ذكر زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجه ولداً زكياً مباركاً ، أردف ذلك بذكر قصص مريم ، وأنه أنجب منها ولداً من غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة آل عمران ، وهنا ، وفى الأنبياء .

وبدأ بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات ، من خلق الولد بلا أب ، ثم ثَنَّى بقصة عيسى لأنها أغرب من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتفهيم والتدرج بالانتقال من الأقرب منالاً إلى أصعب منه ، وهكذا صُعُدا .

﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ .

أى واتل أيها الرسول فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق ، قصص مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها ، وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم خلق الله لأى شيء اتخذ النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؟ .

﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ :

أى فاتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليكلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسىً وغماً ، وإنما مَثل لها بهذا المثال ، لتأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت ، ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :

﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ :

أى فلما رأته فزعت منه وقالت : إنى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ما حَرَّمَ الله عليك ، إن كنت ذا تقوى له . تتقى محارمه ، وتجتنب معاصيه ، فمن يتق الله يجتنب ذلك .

إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها ، فقالت : إنى أعوذ بالله منك إن كنت تخافه . وقد فعلت المشروع فى الدفع وهو أن يكون بالهوينى والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك : أن الاستعاذة لا تؤثر إلا فى التقى ، لأن الله تعالى يُخشى فى حال دون حال ، فهو كقوله : ﴿ وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾[1] أى أن الإيمان يوجب ذلك .

فلما علم جبريل خوفها :

﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ : أى فقال الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها ، لست ممن تظنين ، لا يقع منى ما تتوهمين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاماً طاهراً مبرأ من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :

﴿ قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ﴾ :

(١) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة

أى قالت لجبريل : من أى وجه يكون لى غلام ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور منى الفجور ؟

﴿ قال كذلك قال ربك هو علىَّ هين ﴾ : أى قال الملك مجيباً لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكونى ذات بعل ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى المواد والآلات .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾(١) .

﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ : أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهاناً على قدرتنا ، فلقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولين أشاد القائل :

رُبَّ مولود وليس له أب ... وذى ولد لم يلده أبوان

﴿ ورحمة منا ﴾ : أى ورحمة من الله لعباده ، إذ بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير ولا يبدَّل : ﴿ ما يبدَّل القول لدى وما أنا بظلَّامٍ للعبيد ﴾(٢) .

* فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ فانتبذت ﴾ : أى فاعتزلت ، ﴿ قصياً ﴾ : أى بعيداً عن أهلها وراء الجبل ، ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ : أى فاجأها واضطرها ، ﴿ والمخاض ﴾ : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن . ﴿ والنسى ﴾ : (بفتح النون وكسرها) الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل . ﴿ والمنسى ﴾ : مالا يخطر بالبال لتفاهته ، ﴿ والسرى ﴾ : السيد الشريف ، ﴿ والهز ﴾ : تحريك الشىء بعنف أو بدونه . ﴿ تساقط ﴾ : أى تسقط . ﴿ رطباً ﴾ : أى بسراً ناضجاً . ﴿ جنيا ﴾ : أى صالحاً للاجتناء . ﴿ فقولى ﴾ : أى أشيرى إليهم . ﴿ صوماً ﴾ : أى صمتاً .

(١) الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٩ من سورة ق .

﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ : أى فلما قال لها جبريل ما قال استسلمت لقضاء الله ، فنفخ جبريل فى درعها ، فدخلت النفخة فى جوفها فحملته ، قاله ابن عباس .

وقال غيره : نفخ فى كمها والقرآن قد أثبت النفخ فقال : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾[1] .

ولم يعين موضع النفخ ، فلا نجزم بشىء من ذلك إلا بالدليل القاطع . وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام فكان قصياً عن الناس .

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل ، فنقول أنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ إذ لا تتعلق به كبير فائدة .

إنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها ، وهى من سلائل بيت النبوة ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة ، فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها .

﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ :

أى فألجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به ، لسهولة الولادة ، وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت حياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو كانت شيئا لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس .

﴿ فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعلَ ربُك تحتكِ سرياً ﴾ :

أى فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى ، وسعيد بن جبير .

وقد أنطقه الله حين وضعته تطييبا لقلبها وإزالة للوحشة عنها ، حتى تشاهد بادىء ذى بدء علو شأن ذلك المولود ، الذى بشرها به جبريل عليه السلام ، ألا تحزنى قد جعل ربك المحسن إليك تحتك غلاماً رفيع الشأن ، سامى القدر ، ذا سخاء فى مروءة .

﴿ وهزِّى إليكِ بجذع النَّخلة تُساقط عليكِ رُطباً جنياً ﴾ :

أى أميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يُسقط عليك رطباً جنياً تأكلين منه ما تشائين .

وتلك آية أخرى لها ، إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر ، وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقاً فجعل للنخلة رأساً وخوصاً ، وجعل لها ثمراً رطباً ، وهذه رواية يعوزها الدليل .

وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، وإلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل .

﴿ فكلى واشربى وقرّى عينا ﴾ :

أى فكلى من تلك الرطبة وأشربى من عصيرها ، وطيبى نفسا ، وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله

---

(١) الآية ٩١ من سورة الأنبياء .

قدير أن ينزه ساحتك ، ويبعد عنك تخرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنين التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك ، حتى يثبتوا لك القداسة والطهر .

﴿ فإما ترين من البشرِ أحداً فقولى إنِّى نذَرتُ للرحمنِ صوماً فلن أكلم اليومَ إنسيا ﴾ :

أى فإن رأيت أحداً من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيرى إليهم إنى أوجبت على نفسى لله صمتاً ألا أكلم اليوم أحداً ، فإن كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لا يقبل كلامه الدفع والرد ، وإنى أنزه نفسى عن مجادلة السفهاء ، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجى الخالق .

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام ، فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال : إن الإسلام قد هدم هذا ، فتكلمى .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال : إنه نذر صوماً لا يكلم اليوم إنسيا . فقال له ابن مسعود : بئس ما قلت ، إنما كانت تلك المرأة ، قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا ، فتكلم وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر فإنه خير لك .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ
وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾
وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

المفردات : **﴿ فريا ﴾** : أى عظيما خارقاً للعادة وهى الولادة بلا أب . **﴿ وهارون ﴾** : هو أخو موسى عليه السلام وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائيل والأخت على هذا بمعنى المشابهة وشبهوها به تهكما أو لما رأوا من قبل من صلاحها . **﴿ والمهد ﴾** : الموضع يهيأ للصبى ويوطأ له والجمع مهود . **﴿ الكتاب ﴾** : الإنجيل . **﴿ مباركاً ﴾** : نافعاً للناس أو ثابتاً فى دين الله . **﴿ الجبار ﴾** : المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقاً . **﴿ والشقى ﴾** : العاصى لربه .

﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ﴾ :

أى إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ، ولا تكلم أحداً من البشر ، وأنها ستكفى أمرها ، ويقام

بحجتها سلمت أمرها إلى الله ، واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فما رأوها كذلك أعظموا ما رأوا واستنكروا ، وقالوا : يا مريم لقد جئت أمراً عظيماً منكراً ، ثم زادوا تأكيداً فى توبيخها وتعييرها فقالوا : ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوء وما كانت أمكِ بغياً** ﴾ :

أى يا من أنت من نسل هارون أخى موسى ، كما يقال للتميمى يا أخا تميم ، وللمصرى يا أخا مصر ، أو يا من أنت شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذى كنت تقاسين به فى العبادة والزهد ، ما كان أبوك بالفاجر ، وما كانت أمك بالبغىّ ، فمن أين لك هذا الولد ؟

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ : وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » .

وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك . ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أى فأشارت إلى عيسى أن كلموه ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام ، أو اقتصرت على ذلك للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .

﴿ **قالوا كيفَ نُكلم من كان فى المهدِ صبياً** ﴾ : أى قالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبى فى المهد ولم يعهد فى مثله وهو لم يدرج بعد من حجر أمه أن يكلم أحداً ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم ، وترك الرضاع ، وأشار بيمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

١ - ﴿ **قال أنا عبد الله** ﴾ : أى إنى عبد الله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفى هذا إيماء إلى أن من كان لا يتخذ إلها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

٢ - ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾ : أى سينزل على الإنجيل .

٣ - ﴿ **وجعلنى نبياً** ﴾ : أى وسيجعلنى نبيا ، وفى هذا براءة لأمه ، لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح .

٤ - ﴿ **وجعلنى مباركاً أينما كنتُ** ﴾ : أى سيجعلنى نفاعاً للناس هادياً لهم إلى سبيل الرشاد ، فى أى مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلاً ، وهى لم تحصل بعد من قبل أنها لما كانت واقعة حتى نزلت منزلة ما قد حصل .

٥ - ﴿ وأوصانى بالصَّلاة والزكاة ما دمتُ حياً ﴾ : أى وأمرنى بالصلاة إذ فى إقامتها وإدامتها على الوجه الذى سنه الدين تطهير للنفوس من الأرجاس ، ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرنى بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ، لما فى ذلك من تطهر المال ما دمت حيا فى الدنيا .

٦ - ﴿ وبراً بوالدتى ﴾ : أى وجعلنى براً بوالدتى مطيعاً لها محسنا ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

٧ - ﴿ ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ : أى ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته بعقوق والدتى وعدم البر بها .

٨ - ﴿ والسَّلام علىَّ يومَ وِلدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ : أى والأمنة من الله على فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة ، التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواتراً ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله ، علمنا أنه لم يوجد .

وأيضاً فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تخيلهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شىء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتاً لذلك نص القرآن القاطع إلى أن العقل يرشد إليه ، إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا ، ومن ثم لم يشتهر بينهم وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ
سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

المفردات : ﴿ **قول الحق** ﴾ : أى قول الصدق الذى لا شبهة فيه . ﴿ **يمترون** ﴾ : أى يشكون ويتنازعون . ﴿ **ما كان لله أن يتَّخِذَ مِن ولدٍ** ﴾ : أى ما ينبغى ولا يصح أن يجعل له ولدا . ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ : أى طريق لا يضل سالكه . ﴿ **الأحزاب** ﴾ : فرق النصارى الثلاث . ﴿ **مشهد** ﴾ : أى شهود وحضور . ﴿ **يوم عظيم** ﴾ : هو يوم القيامة . ﴿ **اليوم** ﴾ : أى فى الدنيا . ﴿ **يوم الحسرة** ﴾ : هو يوم القيامة حين يندم الناس على ما فرّطوا فى جنب الله . ﴿ **قضى الأمر** ﴾ : أى فرغ من الحساب .

﴿ ذلِك عيسى ابن مريم قول الحق الَّذى فيهِ يمترون ﴾ :

أى ذلك الذى فصلت نبوته ، وذكرت مناقبه وأوصافه ، هو عيسى ابن مريم تقول ذلك قول الصدق الذى لا ريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر ، وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء .

ثم أكد ما دل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا لغيرها بقوله : ﴿ **ما كانَ لله أن يتَّخِذ مِن ولدٍ** ﴾ :

أى لا يليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد ، لأنه لو أراده لخلقه بقوله : ﴿ **كُنْ** ﴾ : فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظاً لأبيه يعوله وهو حى ، وذكراً له بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك .

والعالم كله خاضع له لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو حى أبداً .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال : ﴿ **سُبحانه** ﴾ : أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال :

﴿ **إذَا قضى أمراً فإنَّما يقول لَهُ كُنْ فَيكون** ﴾ :

أى إذا أراد شيئاً فإنَّما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾(١) .

ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

﴿ **وإن الله ربِّى وربُّكمْ فاعبُدوه** ﴾ : أى ومما أمر به عيسى وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله : إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

﴿ هَذَا صِراط مستقيم ﴾ : أى هذا الذى أوصيتكم أن الله أمرنى به هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه هو الدين الذى أمر به الأنبياء . من خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، اختلفوا فيه كما قال :

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

أى فاختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا :

فقالت اليعقوبية : (نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب) هو الله هبط إلى الأرض ، ثم صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية (نسبة إلى عالم يسمى نسطور) هو ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه ، وقالت المكانية (نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفا عالماً) إنه عبد الله كسائر خلقه ، وهذا الرأى هو الذى نصره الملك ونصره غيره من شيعته ، ثم توعد من كذب على الله وافترى ، وزعم أن له ولدا فقال :

﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ : أى فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدى والأرجل والألسن تشهد على أصحابها وقد أجل الله عقابهم إلى هذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء فى الصحيحين : (أن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[١] .

ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال :

(لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم)[٣] .

ثم عجب ربنا من قوة سمع الكفار ، وحدّة أبصارهم يوم القيامة ، وقد كانوا على الضد من هذا فى الدنيا . فقال :

﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ .

أى لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أنداداً ، وزعموا أن له ولدا ، عمياً فى الدنيا عن إبصار

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ ، ومسلم فى البر : ٦٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ١١ : ٢ .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ٧١ ، وفى التوحيد : ٣ ، ومسلم فى المنافقين : ٤٩ ، ٥٠ ، والإمام أحمد فى : ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

الحق ، والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الكون . دالة على وحدانيته ، وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، صماً عن سماع آى كتبه ، وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ حيث لا يجدى السماع والإبصار شيئاً ، ويعضون على أناملهم حسرة وأسفاً ، ويتمنون على الله الأمانى . فيودون الرجوع إلى الدنيا ، ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

ثم أمر سبحانه نبيه أن ينذر قومه والمشركين جميعا ، فقال : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ .

أى وأنذر الناس جميعاً يوم يتحسر الظالمون على ما فرطوا فى جنب الله ، حين فرغ من الحساب وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لا خروج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم .

روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادى منادٍ يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى منادٍ : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **إذ قضى الأمر** ﴾ أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت .

وذبحه تصوير ، لأن كلاً من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لا موت بعد ذلك .

وقوله : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ : أى عن ذلك اليوم وعن حسراته وأهواله .

وقوله : ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ : أى وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث ، ومجازاة الله لهم على سيء أعمالهم ، بما أخبر أنه مجازيهم به ، ثم سلى رسوله وتوعد المشركين . فقال :

﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾ .

أى لا يحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق . فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثوا الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ، ثم نجازى

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٩ : ١ ، ومسلم فى الجنة : ٤ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٢ ، والدارمى فى الرقاق : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٧٧ ، ٤٢٣ ، ٥١٣ ، وفى ٣ : ٩ .

كل نفس بما عملت حينئذ ، فنجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

قصة إبراهيم مع أبيه

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ
أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

المفردات

﴿ **واذكر فى الكتاب** ﴾ : أى اتل فى هذه السورة .
﴿ **صدّيقا** ﴾ : أى مبالغاً فى الصدق لم يكذب قط .
﴿ **صراطا سويا** ﴾ : أى طريقا مستقيما موصلاً إلى نيل السعادة .
﴿ **وليا** ﴾ : أى قرينا تليه ويليك فى العذاب .
﴿ **أراغب أنت عن آلهتى** ﴾ : أى أكاره لها .
﴿ **لأرجمنك** ﴾ : أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة .

﴿ **مليا** ﴾ : أى دهرا طويلا .
﴿ **حفيا** ﴾ : أى مبالغا فى برى وإكرامى يقال : حفى به إذا اعتنى بإكرامه .
﴿ **شقيا** ﴾ : أى خائب المسعى .
﴿ **لسان صدق** ﴾ : أى ثناء حسنا .

قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ :

أى اذكر لهم يا محمد شأن إبراهيم ، وهو النبى الذى رزقه الله إسماعيل وإسحاق ، وهو الذى يدّعى العرب أنه جدهم ، اذكر لهم أنه كان صديقا عظيم الصدق ، وكان نبياً أوحى الله إليه بشريعة التوحيد ، وعقيدة التنزيه والإخلاص ، فهل يليق بالأحفاد أن يخالفوا دين جدهم الأكبر .

اذكر لهم شأن هذا النبى مع أبيه إذ قال لأبيه : **﴿ يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ :**

وهذا شأن كل معبود من دون الله ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وليِّىَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾[2] .

﴿ وأتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[3] .

ثم تأمل معى هذا الأدب الرفيع ، وخلق النبوة فى مخاطبة إبراهيم لأبيه ، فلم يشأ أن يصفه بالجهل ، إنما خاطبه بعبارة أرق من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم . فقال له :

---

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر .
(٢) الآيات ١٩٥ ـ ١٩٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآيات ٦٩ ـ ٨٩ من سورة الشعراء .

﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ﴾ .

أى إن كنت أصغر منك سناً ، فإن الله تعالى علمنى ما لم تعلمه أنت ، فلا يكن فى صدرك حرج من اتِّباعى ، فإن فى اتِّباعى هداية لك إلى الصراط السوى المستقيم ، الذى فى إتباعه خير الدنيا والآخرة ، وإن فى إتباع الهدى فلاح الدارين ، وسعادة الكونين ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ .

فهو مخالف لله عدو للمؤمنين : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن أعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾(١) .

ثم تأمل حرص إبراهيم على سلامة أبيه وهو يخاطبه بلسان الرحمة والرأفة : ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ :

إنه يخاف عليه من مس العذاب ، فما أبَرَّك يا إبراهيم بأبيك ، وما أعظم قلبك الرحيم ، إنه إن مسك عذاب من الرحمن ، وأنت موال للشيطان ، فلن تجد من يدفع عنك العذاب فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

﴿ ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تئويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلاَّ إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾(٢)

قال تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾(٣) .

فماذا كان جواب أبيه له :

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم * لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾ .

أى إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك ، وهو قوله ﴿ لأرجمنك ﴾ قاله ابن عباس والسدى وابن جريج والضحاك وغيرهم .

وقوله : ﴿ واهجرنى مليا ﴾ : قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير يعنى دهرا ، وقال الحسن البصرى : زمانا طويلا ، وقال السدى ﴿ واهجرنى مليا ﴾ قال : أبداً .

---

(١) الآيات ٦٠ ـ ٦٢ من سورة يس .

(٢) الآيات ١٠ ـ ١٨ من سورة المعارج .

(٣) الآيات ٣٣ ـ ٣٧ من سورة عبس .

وقال على بن أبى طلحة والقوفى عن ابن عباس : ﴿ واهجرنى مليا ﴾ قال : سويا سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة .

وعندها قال إبراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾(٢) .

ومعنى قول إبراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ : يعنى أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى ، وذلك لحرمة الأبوة ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ ولكن سأسأل الله لك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بى حفيا ﴾ قال ابن عباس وغيره : لطيفا أى فى أن هدانى لعبادته ، والإخلاص له ، وقال قتادة ومجاهد وغيرهما : ﴿ إنه كان بى حفيا ﴾ قال : عوده الإجابة .

وقال السدى : الحفى الذى يهتم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾(٣) .

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾(٤) :

يعنى إلا فى هذا القول فلا تتأسوا به .

ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ﴾ :

أى اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله : ﴿ وأدعو ربى ﴾ أى وأعبد ربى وحده لا شريك له .

﴿ عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً ﴾ : وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ٤١ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٥) الآيات ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

قوله تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً * ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ :

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق ويعقوب ، يعنى أنه وابن إسحاق كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ ويعقوب نافلة ﴾[١] وقال : ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾[٢] .

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب ، وهو نص القرآن فى سورة البقرة : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾[٣] .

ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب ، أى جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء ، أقر الله بهم عينه فى حياته ، ولهذا قال : ﴿ **وكلاً جعلنا نبيا** ﴾ .

فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء فى حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ، ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبى أيضاً ، كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس فقال : (يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله)[٤] .

وفى اللفظ الآخر : (أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم)[٥] .

وقوله : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى الثناء الحسن ، وكذا قال السدى ومالك بن أنس ، وقال ابن جرير : إنما قال ﴿ **عليا** ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ذكر موسى وهارون

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٧١ من سورة هود .

(٣) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٨ ، والبخارى فى الأنبياء : ٩ ، ١٤ ، ١٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وأبو داود فى الأدب : ١٦ ، والترمذى فى القيامة : ١٠ ، وابن ماجة فى الزهد : ٣٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، وفى ٥ : ٣٠٩ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١٩ ، وفى المناقب : ١٣ ، وفى تفسير سورة ١٢ : ١ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٢ : ١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٦ ، ٣٣٢ ، ٤١٦ .

المفـردات :

﴿ مخلصاً ﴾ : أى مختارا مصطفى .

﴿ وقربناه ﴾ : أى تقريب تشريف وتكريم .

﴿ والطور ﴾ : هو الجبل الذى بين مصر ومدين .

﴿ ونجياً ﴾ : أى مناجيا مكلما لله بلا واسطة .

﴿ واذكر فى الكتاب موسى ﴾ أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه وتلك هى :

١ ـ ﴿ إنه كان مخلَصا ﴾ : أى أن الله أخلصه واصطفاه وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾(١) .

٢ ـ ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ : أى أن الله أرسله إلى الخلق داعيا ومبشراً ونذيراً ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبى هو الذى ينبىء عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

٣ ـ ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ : أى وكلمناه من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر ، وأنبأناه بأنه رسولنا ، ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ، ورحمنا بنى إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم .

٤ ـ ﴿ وقربناه نجيا ﴾ : أى وقربناه تقريب تشريف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك . . إنه تجاوز العالم المادى ، وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من ربه وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناها ، واستعدت للإطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

٥ ـ ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ : أى ووهبنا له من رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، وإجابة لدعوته عليه السلام بقوله : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى * هارون أخى ﴾(٢) وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبيا : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾(٣) .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا ، قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين .

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة طه .

(٣) الآية ٣٦ من سورة طه .

قصص إسماعيل عليه السلام

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، وإسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السمو والفضل فى هذه الدنيا .

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ﴾ :

أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل علهم يهتدون بهديه ، ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها :

١ - **﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾** : فما وعد عدة إلا وفى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق فى ذلك ووفى بما قال ، وامتثل حتى جاءه الفداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد ، فقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾[١] وقال رسول الله ﷺ : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو بمنأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

٢ - **﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ :**

أى وكان رسولاً إلى جرُهُم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلاً من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، منبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

٣ - **﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ :**

أى أنه بعد أن كمل نفسه اشتغل بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[٢] وقال : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[٣] وقال : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٢ من سورة الصف .
(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ١٣٢ من سورة طه .
(٤) الآية ٦ من سورة التحريم .

٤ ـ ﴿ وكان عند ربه مرضيا ﴾ : عمله ، محمودا فيما كلفه به ، غير مقصر فى طاعته فاقتد أيها الرسول به ، لأنه من أجل آبائك .

قصص إدريس عليه السلام

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس** ﴾ : بالثناء عليه ، والنسابون يقولون : إنه جد أبى نوح عليه السلام ، ويقولون : إنه أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب . وجعل الله ذلك من معجزاته .

وإن تقادم العهد ، وطول الزمن ، وعدم وجود السند الصحيح الذى يعول عليه فى الرواية يجعلنا فى شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفى بما جاء به الكتاب الكريم فى شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :

١ ـ ﴿ **إنه كان صدِّيقا** ﴾ تقدم القول فى هذا .

٢ ـ ﴿ **نبيا** ﴾ تقدم القول فى هذا .

٣ ـ ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ : أى أعلينا قدره ورفعنا ذكره فى الملأ .

ونحو هذا قوله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[1] .

ويرى بعض الباحثين فى الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس ـ أموريس) وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إربا إربا ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحنطتها . واتخذوه إلها بعد أن كان مصلحا عظيما .

وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يعنون بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرب الأمثال فى الخافقين .

وقد كان الملك والدين فى عهد تلك الدولة أمرا واحدا ، فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

ويعتقدون أن أوزيس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوى وله عرش عظيم فى السماء ، ويتمتع بأعظم الخيرات . وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم إثنان وأربعون قاضيا بأن حسناته غلبت سيئاته يلحق بأوزريس وهذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل فى ذلك إليه .

---

(١) الآية ٤ من سورة الشرح .

وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث ، وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة ، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبى بأمته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان ، بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

وبعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم فقال :

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

المفردات :

﴿ **إسرائيل** ﴾ : يعقوب عليه السلام .

﴿ **اجتباه** ﴾ : اصطفاه واختاره .

﴿ **والسجد** ﴾ : واحدهم ساجد .

﴿ **البكىّ** ﴾ : واحدهم باكٍ ويقال بكى يبكى بكاء .

﴿ **وبكيا** ﴾ : قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى لا صوت معه .

يقول تعالى هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء عليهم السلام ، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿ **الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم** ﴾ الآية .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم إسحق ويعقوب وإسماعيل ، والذى عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم .

قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس ، فإنه جد نوح .

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له

إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾(١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾(٢) .

وفى صحيح البخارى عن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفى صّ سجدة ؟ فقال : نعم ثم تلا هذه الآية : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم قال وهو منهم) يعنى داود(٣) .

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ :

أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكى جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعا لمنوالهم .

قال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سورة مريم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكى يريد البكاء .

موقف الخلف ومن تاب

قوله تعالى :

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

---

(١) الآيات ٨٣ـ٨٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٧٨ من سورة غافر .
(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٦ : ٥ ، وسورة ٣٨ : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٦٠ .

المفـردات :

﴿ **الخَلْف** ﴾ : (بسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلَف (بفتح اللام) .

﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ : أى تركوها بتاتا .

﴿ **اتبعوا الشهوات** ﴾ : أى انهمكوا فى المعاصى والللذات .

﴿ **غيًّا** ﴾ : أى ضلالاً ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

﴿ **جنات عدن** ﴾ : أى جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام .

﴿ **بالغيب** ﴾ : أى وهى غائبة عنهم .

﴿ **وعـده** ﴾ : أى ما وعد به من الجنات .

﴿ **مأتيا** ﴾ : أى يأتيه من وعد به لا محالة .

﴿ **لغـوا** ﴾ : أى فضولا من الكلام لا طائل تحته .

﴿ **سلاما** ﴾ : أى سلاما من الله أو من الملائكة .

المعنى الإجمالى والمناسبة

بعد أن ذكر سبحانه حُزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ، ممن قاموا بحدود الدين فاتبعوا أوامره ، وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ـ أردف هذا ذكر من خلفهم ممن أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة إلا من تاب وأناب ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئا من جزاء أعماله .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى قوم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله فى السماء .

وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم فى جماعة آخرين عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية قال : (يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر)(١) .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : (سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن . قلت : يا رسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا . قلت : وما أهل اللبن ؟ قال : قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات)(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ :

لما ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن أتبعهم من القائمين بحدود الله

---

(١) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة : ٢١٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٤١٧ ، وفى ٣ : ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٥٥ .

وأوامره المؤدين فرائض الله ، التاركين لزواجره ، ذكر أنه ﴿ **خلف من بعدهم خلف** ﴾ أى قرون أُخر .

﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ : وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على الشهوات وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيًّا ، أى خسارا يوم القيامة .

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة ههنا ، فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، قال محمد بن كعب القرظى ، والسدى ، واختاره ابن جرير ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : (بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة)[1] ، والحديث الآخر (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[2] .

وقال الأوزاعى فى قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة** ﴾ :

قال : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركا كان كفرا .

وقال ابن مسعود عندما قيل له إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾[3] و﴿ على صلاتهم دائمون ﴾[4] و﴿ على صلاتهم يحافظون ﴾[5] ، فقال ابن مسعود : على مواقيتها .

قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك . قال : ذلك الكفر .

قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن .

وقال الأوزاعى : إن عمر بن عبد العزيز قرأ ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾ .

ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ، ولكن أضاعوا الوقت .

وقال كعب الأحبار : والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل شرًّا بين للقهوات ، ترّاكين للصلوات ، لعّابين بالكعبات ، رقادين عن العتمات ، مفرطين فى الغدوات ، ترّاكين للجماعات ، قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا** ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٤ ، وأبو داود فى السنة : ١٥ ، والترمذى فى الإيمان : ٩ ، وابن ماجة فى الإقامة : ١٧ ، والدارمى فى الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٨ . والترمذى فى الإيمان : ٩ ، وابن ماجة فى الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفى الفتن : ٢٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) الآية ٥ من سورة الماعون .

(٤) الآية ٢٣ من سورة المعارج .

(٥) الآية ٣٤ من سورة المعارج .

وقال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات .

وقال أبو الأشهب العطاردى : أوحى الله إلى دواد عليه السلام : (يا دواد حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بالشهوات الدنيا ، عقولها عنى محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته ، أن أحرمه طاعتى) .

وقوله تعالى : ﴿ **فسوف يلقون غيًّا** ﴾ : عن ابن عباس خسرانا .

وقال قتادة : شرا .

وقال سفيان الثورى وشعبة ومحمد بن إسحق عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ قال : واد فى جهنم من قيح ودم .

وقال ابن جرير عن عجلان الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : (لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفا ثم تنتهى إلى غى وآثام . قال : قلت : ما غى وآثام ؟ قال : قال : بئران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه ﴿ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون ﴾ وقوله فى الفرقان : ﴿ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ : أى إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا** ﴾ .

وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها .

وفى الحديث الآخر : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[٢] .

ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئا ، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها ، فينقص لهم مما عملوه بعدها ، لأن ذلك ذهب هدرا ، وترك نسيا ، وذهب مجانا من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ - إلى قوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا * لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا * تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ :

يقول تعالى : الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم هى جنات عدن أى إقامة ، التى وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أى هى من الغيب الذين يؤمنون به وما رأوه ، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الفرقان .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الزهد : ٣٠ .

(٣) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الفرقان .

وقوله : ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ : تأكيداً لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولا يبدله ، كقوله ﴿ كان وعده مفعولا ﴾[1] : أى كائنا لا محالة ، وقوله ههنا : ﴿ **مأتيا** ﴾ أى العباد صائرون إليه وسيأتونه .

ومنهم من قال : ﴿ **مأتيا** ﴾ بمعنى آتيا ، لأن كل ما أتاك فقد أتيته .

وقوله : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا** ﴾ : أى هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه ، لا معنى له كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله : ﴿ **إلا سلاما** ﴾ : استثناء منقطع كقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما ﴾[2] .

وقوله : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ : أى فى مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلا ونهارا ، ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار ، كما قال الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوه ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً)[3] . أخرجاه فى الصحيحين .

وقال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا)[4] .

وعن ابن عباس : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ ، قال : مقادير الليل والنهار .

قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ :

أى هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل فى السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ ، والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[5] .

---

(١) الآية ١٨ من سورة المزمل .
(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .
(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٨ . ومسلم فى الجنة : ١٧ ، والترمذى فى الجنة : ٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٦ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٦٦ .
(٥) الآيات ١ - ١١ من سورة المؤمنون .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

الأمر كله لله

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

المفردات :

﴿ **التنزل** ﴾ : النزول وقتا غب وقت .

﴿ **ما بين أيدينا** ﴾ : أى أمامنا من الزمان المستقبل .

﴿ **وما خلفنا** ﴾ : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك هو الزمان الحاضر .

﴿ **نسيا** ﴾ : أى تاركا لك .

﴿ **اصطبر عليها** ﴾ : أى أثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق .

﴿ **سميا** ﴾ : مثلاً ونظيرا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتا له ﷺ ، وأعقبه بذكر ما أحدثه الخَلْف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبى ﷺ ؛ إذ زعم المشركون أن الله ودَّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا .

روى : (أن جبريل عليه السلام احتبس عنه ﷺ أياماً حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يدر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب ؟ فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون : إن ربه ودعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام : يا جبريل احتبست عنى حتى ساء

ظنى ، واشتقت إليك ، فقال : إنى إليك لأشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية)[١] .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** ﴾ :

قال مجاهد : لبث جبرائيل عن محمد ﷺ إثنتى عشرة ليلة ، ويقولون أقل ، فلما جاءه قال : (يا جبرائيل لقد رثت علىَّ حتى ظن المشركون كل ظن) فنزلت : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ : قيل المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا ، وما خلفنا أمر الآخرة .

﴿ **وما بين ذلك** ﴾ : ما بين النفختين ، هذا قول أبى العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : ﴿ **ما بين أيدينا** ﴾ : ما يستقبل من أمر الآخرة .

﴿ **وما خلفنا** ﴾ : أى ما مضى من الدنيا .

﴿ **وما بين ذلك** ﴾ : أى ما بين الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ : معناه ما نسيك ربك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربك وما قلى ﴾[٣] .

وقال ابن أبى حاتم ، عن أبى الدرداء يرفعه قال : (ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا) . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ :

أى خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه ، والمتصرف الذى لا معقب لحكمه .

﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا** ﴾ .

عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلا أو شبيها ، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم .

وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى ، وتقدس اسمه .

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ٤ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٥٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٩ : ٢ ، وفى التوحيد : ٢٨ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٣٥٧ .

(٣) الآيات ١ - ٣ من سورة الضحى .

البعث حق

قال تعالى :

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن
قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾
ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ
بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾
وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا
﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ
وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ
بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا
﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾
وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

المفـردات :

﴿ **يذكر** ﴾ : أى يتذكر ويتفكر .

﴿ **لنحشرنهم** ﴾ : أى لنجمعهم .

﴿ **جثيا** ﴾ : واحدهم جاثٍ وهو البارك على ركبتيه .

﴿ **شيعة** ﴾ : أى جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه .

﴿ **عتيا** ﴾ : أى تكبرا ومجاوزة للحد .

﴿ **صليا** ﴾ : أى دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها .

﴿ **واردها** ﴾ : أى مار عليها .

﴿ **حتما** ﴾ : أى واجبا .

﴿ **مقضيا** ﴾ : أى قضى بوقوعه البتة .

﴿ **بينات** ﴾ : أى ظاهرات الإعجاز .

﴿ **مقاما** ﴾ : أى مكانا ومنزلا .

﴿ **نديًا** ﴾ : أى مجلسا ومجتمعا ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ، ومنه دار الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم .

﴿ **والقـرن** ﴾ : أهل كل عصر .

﴿ **والأثاث** ﴾ : متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له .

﴿ **والرئى** ﴾ : والمنظر والمراد به النضارة والحسن .

﴿ **فليمدد** ﴾ : أى فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات .

﴿ **جندا** ﴾ : أى أنصارا .

﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ : أى الطاعات التى تبقى آثارها .

﴿ **مردّاً** ﴾ : أى مرجعا وعاقبة .

﴿ **أطلع الغيب** ﴾ : من قولهم أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب .

﴿ **عهدا** ﴾ : أى عملاً صالحاً .

﴿ **كـلا** ﴾ : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ .

﴿ **سنكتب ما يقول** ﴾ : أى سنظهر له إنا كتبنا .

﴿ **ونمد له من العذاب** ﴾ : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه .

﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصداقه ، وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد .

﴿ **فردا** ﴾ : أى لا يصحبه مال ولا ولد .

﴿ **العـز** ﴾ : المنعة والقوة .

﴿ **سيكفرون** ﴾ : أى سيجحدون .

﴿ ضدّا ﴾ : أى أعداء وأعوانا عليهم .

﴿ والأز ﴾ : والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتهييج لها بالتويلات ، وتحبيب الشهوات .

﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم .

﴿ الوفد والوفود والأوفاد ﴾ : واحدهم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا إلى الرحمن ؛ أى إلى دار كرامته وهى الجنة .

﴿ وردا ﴾ : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نَعَم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله إلا الله ، والتبرى من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على ما فيها من مشاق وشدائد ، أبان فائدة ذلك ، وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لا ريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ، ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه ، وأخلص فى عمله .

روى الكلبى أنها نزلت فى أبىّ بن خلف أخذ عظما بالياً فجعل يفتُّه بيده ويذْريه فى الريح ، ويقول : زعم فلان أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ؟ إن هذا لن يكون أبداً .

وبعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، والعودة إلى حياة أخرى . اتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قبل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة لكنا نجد الأمر العكس من هذا ، فإنا نحن الذين يمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلكم وكانوا أحسن منكم حالاً وأكثر مالاً ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه العبارة النضر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش للمؤمنين من أصحاب النبى ﷺ ، وكانوا فى خشونة من العيش ، وفى رثاثة من الثياب ، وهم كانوا يرجّلون شعورهم ، ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مثال الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الدلائل على صحة البعث ، ثم أورد شبه المنكرين له ، وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب ، قضى على ذلك بذكر مقالتهم التى قالوها استهزاء وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان عن خباب بن الأرت قال : (كنت رجلا قَيْنًا (حداداً) وكان لى على العاص بن وائل دَين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثَمَّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أفرأيت ﴾ الآية)(١) .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا * فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن الإنسان الذى عجب من إعادته بعد الموت ، فأنكر المعاد ، وقال ساخراً : ﴿ أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٢) .

وذلك بعدما أقام الأدلة الناطقة بقدرته الشاهدة بإرادته ، الدالة على وحدانيته ، قال تعالى : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(٣) .

وبعد هذا كله يقف الإنسان الجحود الكنود موقف الإنكار كما ذكر سبحانه فى قوله : ﴿ أو لم ير

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع : ٢٩ ، وفى الإجارة : ١٥ ، وفى الخصومات : ١٠ ، وفى تفسير سورة ١٩ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ومسلم فى المنافقين : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الآية ٥ من سورة الرعد .

(٣) الآيات ٢ ـ ٤ من سورة الرعد .

الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾(١) .

فهذه خمسة أدلة تثبت أن البعث حق كما فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾(٢) .

هذه الآية أنتجت خمس نتائج بينها العلى الحكيم فى قوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٣) .

إن الذى بدأ الخلق قادر على إعادته ، قال تعالى : ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾(٤) .

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٥) .

وفى الصحيح : يقول الله تعالى : (كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)(٦) .

قوله تعالى : ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين** ﴾ : أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة ، أنه لابد أن يحشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : يعنى قعوداً كقوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾(٧) .

---

(١) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .
(٢) الآية ٥ من سورة الحج .
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الحج .
(٤) الآية ٦٧ من سورة مريم .
(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .
(٦) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٨ ، وفى تفسير سورة ١١٢ : ١ ، ٢ ، والنسائى فى الجنائز : ١١٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٧ ، ٣٥٠ .
(٧) الآية ٢٨ من سورة الجاثية .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعنى من كل أمة ، ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

قال الثورى عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعا ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرما ، وهو قوله : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

وقال قتادة : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر ، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب ، كما قال تعالى فى الآية المتقدمة : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ :

قال الإمام أحمد عن أبى سمية قال : أختلفنا فى الورود . فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعاً ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له إنا أختلفنا فى الورود . فقال : يردونها جميعا ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها ، وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال صُمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا)(٢) .

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينه قال : كان عبد الله بن رواحة واضعا رأسه فى حجر امرأته فبكى فبكت امرأته ، قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكى فبكيت . قال : إنى ذكرت قول الله عز وجل ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ فلا أدرى أأنجو منها أم لا .

وقال ابن جرير عن أبى إسحق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أمى لم تلدنى ، ثم يبكى فقيل له : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها .

وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصرى قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟

---

(١) الآيتان ٣٨ ـ ٣٩ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه الترمذى فى جهنم : ١٠ ، وابن ماجة فى الفتن : ٣٣ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٩ ، وفى ٤ : ٢٤ .

قال : نعم . قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا . قال : ففيم الضحك ؟! قال : فما رئى ضاحكا حتى لحق بالله .

وروى الترمذى عن ابن مسعود (مرفوعا) قال : (يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامى قدميه يمر فيتكفأ به الصراط دحض مذلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس)[1] . الحديث . وفى رواية والملائكة تقول : (اللهم سلم سلم) .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

فياله من يوم ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله ، ومن خطب ما أهوله : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[2] .

فيا ابن آدم : جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

يا أيها العقلاء :

نموت وأيامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب
عجبت لذى لعب قد لهى عجبت ومالى لا أعجب
أيلهو ويلعب من نفسه تموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الجديدان جمعا بنا وليس لنا منهما مهرب
وكلٌ له مدة تنقض وكلٌ له أثر يكتب

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر عن أم بشر عن حفصة قالت قال رسول الله ﷺ : (إنى لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرا والحديبية)[3] قالت : فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قالت : فسمعته يقول : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٠٢ ، ٣١٦ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٨٣ ، وفى ٦ : ١١٠ ، وابن ماجة فى الزهد : ٣٣ .

(٢) الآية ٢ من سورة الحج .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٥ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم)[١] .

فقال ابن جرير بسنده : عن أبى هريرة قال خرج رسول الله ﷺ يعود رجلا من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال : (إن الله تعالى يقول هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظه من النار فى الآخرة) .

وعن مجاهد قال : الحمى حظ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ .

وقال الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً فى الجنة) فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : (الله أكثر وأطيب)[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : (من قرأ ألف آية فى سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا إن شاء الله ، ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعا لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم) قال الله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ وإن الذكر فى سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف)[٣] .

وروى أبو داود بسنده عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ : (إن الصلاة علىّ والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف)[٤] .

وقال النبى ﷺ : (الزالّون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسد يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم)[٥] .

قوله تعالى : ﴿ كان على ربك حتما مقضيا ﴾ .

قال ابن مسعود أى قسماً واجباً .

وقال مجاهد : حتما : أى قضاء .

قوله تعالى : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ :

أى إذا مر الخلائق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوو المعاصى .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٢٦ ، وفى الإيمان : ٩ ، ومسلم فى البر : ١٥ ، والترمذى فى الجنائز : ٦٤ ، والنسائى فى الجنائز : ٢٥ ، وابن ماجة فى الجنائز : ٥٧ ، والإمام مالك فى الجنائز : ٣٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٤٧٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١١٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦ ، وفى الإيمان : ٩ . ومسلم فى البر : ١٥٠ ، والترمذى فى الجنائز : ٦٤ ، والنسائى فى الجنائز : ٢٥ ، وابن ماجه فى الجنائز : ٥٧ ، والإمام مالك فى الجنائز : ٣٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٦ .

(٤) أخرجه أبو داود فى الجهاد : ١٣ ، والنسائى فى الجهاد : ٤٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٤٣٨ .

(٥) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥٢ ، وفى الأذان : ١٢٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢٩ ، والترمذى فى القيامة : ٩ ، وفى الجنة : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٣٦٩ ، ٥٣٤ ، وفى ٣ : ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، وفى ٦ : ١١٠ .

بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا ، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقا كثيرا ، قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهى مواضع السجود ، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، ولم يعمل خيرا قط ، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن بعض مواقف الكفار عندما تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان ، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقاما وأحسن نديا ﴾ أى أحسن منازل ، وأرفع دورا ، وأحسن نديا ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أى ناديهم أعمر وأكثر واردا وطارقا ، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون مستترون فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق .

كما قال تعالى مخبرا عنهم ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾[١] ، وقال قوم نوح : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَن الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾[٣] .

ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ : أى وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم : ﴿ هم أحسن أثاثا ورءيا ﴾ : أى كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً .

وعن ابن عباس : ﴿ خير مقاما وأحسن نديا ﴾ قال : المقام المنزل ، والندى المجلس ، والأثاث المتاع ، والرئى المنظر والنعمة والبهجة التى كانوا فيها .

وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾[٤] .

فالمقام المسكن والنعيم ، والندى المجلس الذى كانوا يجتمعون فيه ، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : ﴿ وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾[٥] .

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١١١ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان .
(٥) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .

قوله تعالى : ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل : ﴿ **من كان فى الضلالة** ﴾ أى منا ومنكم ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ أى فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ﴿ **إما العذاب** ﴾ يصيبه ﴿ **وإما الساعة** ﴾ بغتة تأتيه ﴿ **فسيعلمون** ﴾ حينئذ ﴿ **من هو شرٌّ مكانا وأضعف جندا** ﴾ فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى .

قال مجاهد : ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ فليدعه الله فى طغيانه ، هكذا قرر ذلك أبو جعفر ابن جرير رحمه الله .

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه . كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾[١] .

أى أدعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ، فنكلوا عن ذلك .

وكما ذكر سبحانه وتعالى المباهلة مع النصارى فى سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم ، أن عيسى ولد الله ، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى ، وأنه مخلوق كآدم ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾[٢] فنكلوا أيضا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا** ﴾ :

هو كقوله جل شأنه : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[٣] .

وكقوله جل شأنه : ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾[٤] .

وكقوله تبارك اسمه ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٥] .

---

(١) الآية ٦ من سورة الجمعة .
(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٢ من سورة الأنفال .

قوله تعالى : ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا** ﴾ :

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان بن عفان ؛ يقول : (جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء فى إناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال : (من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات)[١] . قالوا : هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال : هى لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

قوله تعالى : ﴿ **خير عند ربك ثوابا** ﴾ :

أى جزاء ، فنعم الثواب ثوابهم ، وحسنت مرتقا ﴿ **وخيرٌ مردا** ﴾ أى مرجعا ومنقلبا ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾[٢]

فيامن إليه المآب والرجعى ، اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ولا تجعل الدنيا كل همنا ولا مبلغ علمنا ، وبلغنا مما يرضيك آمالنا .

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدا * أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا** ﴾ .

قال الامام أحمد بسنده عن خباب بن الأرت قال : (كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال لا والله لا أقاضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا ، والله ، لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد ، فأعطيك فأنزل الله﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿**أطلع الغيب**﴾ : هذا استفهام إستنكارى على صاحب تلك المقولة ، أى أعِلمَ ما له فى الآخرة حتى تأتى وحلف على ذلك .

﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ : أى ألَهُ عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ **كلا سنكتب ما يقول . .** ﴾ : كلا هنا حرف ردع وزجر لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ، ﴿ **سنكتب ما يقول** ﴾ أى من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم ، ﴿ **ونمد له** من العذاب **مدا** ﴾ أى فى الدار الآخرة ، على قوله ذلك وكفره بالله فى الدنيا .

﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ : أى من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى فى الدار الآخرة مالاً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) الآية ٤٣ من سورة غافر .

وولداً زيادة على الذى له فى الدنيا ، وفى الآخرة يسلب من الذى كان له فى الدنيا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويأتينا فردا** ﴾ أى من المال والولد .

﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ : أى نرثه . قاله ابن عباس .

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[١] .

وإذ يقول : ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾[٢] .

وإذ يقول : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾[٣] .

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾[٤] .

يا أخا الإسلام :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلى عن أناس مضوا أمالك فيما مضى معتبر

فسبحان من وجب الوجود لذاته وكتب الفناء على غيره .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعا والمهيمن باق

قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا * ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا** ﴾ :

وهذا إخبار من البارى تبارك وتعالى عن هؤلاء الذين ضلوا السبيل ، فاتخذوا من دون الله آلهة زاعمين أنها ستكون لهم عزا ، ونسوا أو تناسوا أن العزة لله جميعا ، فمن استعز بغير الله ذل ، ومن اعتمد على الله لا صل ولا زل .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

---

(١) الآية ٤٠ من سورة مريم .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحجر .

(٣) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة ق .

(٤) الآية ٨٨ من سورة القصص .

وسبحان القائل : ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[١] .

ومن ثم جاء قوله تعالى ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أى بخلاف ما رجوا منهم .

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً** ﴾ :

أى تغويهم إغواء ، وتحرضهم على محمد وأصحابه تحريضا ، وتزعجهم إزعاجا إلى معاصى الله ، وتغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا .

وهو كقوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين * ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا** ﴾ :

وهذا تثبيت من الله تعالى لرسوله الكريم ، فإن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

قال جل شأنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه ، والوفد القادمون ركبانا ، ومنه الوفد ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه .

أما المجرمون المكذبون للرسل ، المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفا إلى النار ﴿ **وردا** ﴾ عطاشا ، وههنا يقال : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا** ﴾ .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه بسنده ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، حدثنا النعمان

---

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٦١ من سورة النحل .

ابن سعيد ، قال : كنا جلوسا عند على رضى الله عنه فقرأ هذه الآية ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ قال : (لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة) .

قوله تعالى : ﴿ **لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ :

أى ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبرا عنهم : ﴿ فمالنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ هو استثناء منقطع بمعنى لكن ، أى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

من قبائح الكافرين

قال تعالى :

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ
وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي
لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾
لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ
قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ
رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

المفردات :

﴿ **جئتم** ﴾ : أى فعلتم .

﴿ **والإدّ** ﴾ : (بالكسر والفتح) المنكر العظيم .

﴿ **والتفطر** ﴾ : التشقق .

﴿ **وتخر** ﴾ : تسقط وتنهدم .

---

(١) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الشعراء .

﴿ دعـوا ﴾ : أى نسبوا .
﴿ عبدا ﴾ : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد .
﴿ أحصاهم ﴾ : عدهم وأحاط بهم .
﴿ وعدهم عدّا ﴾ : أى عد أشخاصهم .
﴿ فـردا ﴾ : أى منفردا لا شىء معه من الأنصار والأتباع .
﴿ الود ﴾ : المودة والمحبة .
﴿ بلسانك ﴾ : أى بلغتك .
﴿ واللُّدّ ﴾ : واحدهم ألد وهو الشديد الخصومة .
﴿ وركزاً ﴾ : أى صوتا خفيا .

المناسبة وإجمـال المعنى

بعد أن رد على عبدة الأوثان ، وأثبت لهم بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالة يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون ، أردف ذلك الرد على من نسب له الولد كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وبعد أن فصّل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالغ فى الرد عليهم ، ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده .

وبعد أن استقص فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر ، ورد فيها على فرق المبطلين ، بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه ﷺ ، ليبشر به المتقين ، وينذر به قوما لدا من المشركين ، ذوى الجدل والمماراة .

لما قرر سبحانه وتعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيراً .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا ﴾ أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ﴿ لقد جئتم شيئاً إدًّا ﴾ لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما ، يدل على الجرأة على الله ، وكمال القحة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ : أى أن السموات ، تكاد تتشقق منه لشدة هوله ، وعظم شأنه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

﴿ وتنشق الأرض ﴾ : أى تخسف بهم .
﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ : أى تسقط هدا ، فتنطبق عليهم .

روى عن ابن عباس قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه ، لعظمة الله وكماله .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حلمه سبحانه لهلك .

ثم بين علة ذلك : ﴿ **أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ : أى من أجل أنهم نسبوا إلى الله اتخاذ الولد .

ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله : ﴿ **وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا** ﴾ : أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما ، وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسرور به ، والاستعانة به حين الحاجة ، وللذكر الجميل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا ، فقال : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا** ﴾ :

أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجىء إليه حين الحاجة ويخضع له خضوع العبد لسيده .

﴿ **لقد أحصاهم** ﴾ : أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت قهره وأمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لا يفوته شىء منها .

﴿ **وعدهم عدا** ﴾ : أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ : أى وكل امرىء منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ :

أى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وبما جاءوهم به من عنده ، وعملوا به ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج مسلم والبخارى والترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى الأرض)[1] ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله وجهه : (قل اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا) فأنزل الله سبحانه الآية .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٦ ، وفى الأدب : ٤١ ، وفى التوحيد : ٣٣ ، ومسلم فى البر : ١٥٧ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٧ ، والإمام مالك فى الشعر : ١٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، وفى ٥ : ٢٠٩ ، ٢٦٣ .

وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك ـ سيجعل الله للمؤمنين الذين يعلمون الصالحات مودة فى القلوب ، يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرض للأسباب التى يكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو ضداقة أو اصطناع معروف .

ثم ذكر الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب :

﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾ :

أى فإنما سهّلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس ، وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة .

﴿ وتنذر به قوما لدا ﴾ : أى وتنذر به من عصاه من قريش ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ، ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .

وقصارى ذلك ـ بلّغ هذا المنزّل وبشّر به ، وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال سبحانه : **﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾** :

أى وقد أهلكنا الكثير من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلافى مسلك هؤلاء ، وركبوا معاص ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعاينه ، أو تسمع له صوتا ؟ لا ، إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، وإن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ، ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .

وقصارى ذلك ـ إنا أهلكناهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ، ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

ســورة طــه

مقـــدمـة

السورة مكية إجماعاً ، وعدد آياتها خمس وثلاثون بعد المائة ، وكلماتها ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون ، وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً .

مقصـود السـورة

تيسير الأمر على الرسول ﷺ ، وذكر الاستواء ، وعلم الله تعالى بالقريب والبعيد ، وذكر حضور موسى عليه السلام بالوادى المقدس ، وإظهار عجائب عصاه واليد البيضاء ، وسؤال شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وإلقاء التابوت فى البحر ، وإثبات محبة موسى فى القلوب ، وإصطفاء الله تعالى موسى ، واختصاصه بالرسالة إلى فرعون ، وما جرى بينهما من المكالمة والموعد يوم الزينة ، وحيل سحرته بالحبال والعصى (وإيمان السحرة) وتعذيب فرعون بهم .

والمنة على بنى إسرائيل بنجاتهم من الغرق ، وتعجيل موسى ، والمجىء إلى الطور ، ومكر السامرى فى صنعة العجل ، وإضلال القوم ، وتغيير موسى على هارون بسبب ضلالتهم .

وحديث القيامة ، وحال الكفار فى عقوبتهم ، ونسف الجبال ، وإنقياد المتكبرين فى ربقة طاعة الله الحى القيوم .

وآداب قراءة القرآن ، وسؤال زيادة العلم والبيان .

وتعيير آدم بسبب النسيان ، وتنبيهه على الوسوسة ومكر الشيطان .

وبيان عقوبة نسيان القرآن .

ونهى النبى عن النظر إلى أحوال الكفار . وأهل الطغيان ، والالتفات إلى ما خوِّلوا من الأموال والولدان وإلزام الحجة على المنكرين بإرسال الرسل بالبرهان ، وتنبيه الكفار على انتظار أمر الله فى قوله ﴿ **قل كل متربص** ﴾ إلى آخر السورة .

المتشـابهـات

قوله تعالى : ﴿ **وهل أتاك حديث موسى * إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** ﴾ .

وفى النمل : ﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾[1] .

(١) الآية ٧ من سورة النمل .

وفى القصص : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أوجذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾[١] .

هذه الآيات تشتمل على ذكر رؤية موسى النار ، وأمره أهله بالمكث ، وإخباره إياهم أنه آنس ناراً ، وإطماعهم أن يأتيهم بنار يصطلون بها ، أوخبر يهتدون به إلى الطريق التى ضلوا عنها ، لكنه نقص فى النمل ذكر رؤية النار وأمره بالمكث اكتفاء بما تقدم .

وزاد فى القصص قضاء موسى الأجل المضروب ، وسيره بأهله إلى مصر ، لأن الشىء قد يجمل ثم يفصّل ، وقد يفصل ثم يجمل ، وفى طه فصّل ، وأجمل فى النمل ، ثم فصّل فى القصص وبالغ فيه .

وقوله فى طه ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ : أى من يخبرنى بالطريق فيهدينى إليها ، وإنما أخر ذكر الخبر فيها (وقدمه فيهما) مراعاة لفواصل الآى فى السور جميعاً ، وكرر (لعلى) فى القصص لفظاً وفيهما معنى ، لأن (أو) فى قوله **﴿ أو أجد على النار هدى ﴾** نائب عن (لعلى) ، و **﴿ سآتيكم ﴾** يتضمن معنى (لعلى) .

وفى القصص ﴿ أوجذوة من النار ﴾ وفى النمل ﴿ بشهاب قبس ﴾ وفى طه **﴿ بقبس ﴾** ، لأن الجذوة من النار (خشبة) فى رأسها قبس له شهاب ، فهى فى السور الثلاث عبارة عن معنى واحد .

قوله تعالى **﴿ فلما أتاها ﴾** هنا ، وفى النمل : ﴿ فلما جاءها ﴾ وفى القصص ﴿ أتاها ﴾ لأن أتى وجاء بمعنى واحد ، لكن لكثرة دور الإتيان هنا نحو **﴿ فأتياه ﴾** ﴿ فلنأتينك ﴾ **﴿ ثم أتى ﴾** ﴿ ثم ائتوا ﴾ ، **﴿ حيث أتى ﴾** .

وجاء ﴿ أتاها ﴾ ولفظ ﴿ جاء ﴾ فى النمل أكثر ، نحو : ﴿ فلما جاءهم ﴾ ﴿ وجئتك من سبأ ﴾ ، ﴿ فلما جاء سليمان ﴾ ، وألحق القصص بطه لقرب ما بينهما .

قوله : **﴿ فرجعناك إلى أمك ﴾** ، وفى القصص ﴿ فرددناه ﴾ ، لأن الرجع إلى الشىء والرد إليه بمعنى ، والرد عن الشىء يقتضى كراهة المردود ، وكان لفظ الرجع ألطف فخص طه به ، وخص القصص بقوله ﴿ فرددناه ﴾ تصديقا لقوله ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ .

قوله : **﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾** وفى الزخرف : ﴿ وجعل ﴾ لأن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالاً ، فخص به طه ، وخُصّ الزخرف بجعل ، إزدواجا للكلام ، وموافقة لما قبلها وما بعدها .

قوله تعالى : **﴿ إلى فرعون ﴾** ، وفى الشعراء ﴿ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا ﴾ ، وفى القصص ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون ﴾ ، لأن طه هى السابقة ، وفرعون هو الأصل والمبعوث إليه ، وقومه تبع له ، وهم كالمذكورين معه .

وفى الشعراء ﴿ قوم فرعون ﴾ : أى قوم فرعون وفرعون ، فاكتفى بذكره فى الإضافة عن ذكره مفردا ، ومثله : ﴿ أغرقنا آل فرعون ﴾ أى آل فرعون وفرعون .

(١) الآية ٢٩ من سورة القصص .

وفى القصص : ﴿ إلى فرعون وملإه ﴾ فجمع بين الاثنين ، فصار كذكر الجملة بعد التفصيل .

قوله : ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ : صرح بالعقدة هنا ، لأنها السابقة ، وفى الشعراء ﴿ ولا ينطلق لسانى ﴾ فكنى عن العقدة بما يقرب من الصريح ، وفى القصص ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ﴾ فكنى عن العقدة كناية مبهمة ، لأن الأول يدل على ذلك .

قوله تعالى فى الشعراء ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ وليس له فى طه ذكر ، لأن قوله : ﴿ ويسر لى أمرى ﴾ مشتمل على ذلك وغيره ، لأن الله عز وجل إذا يسر له أمره لم يخف القتل .

قوله تعالى : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ﴾ صرح بالوزير لأنه الأول فى الذكر ، وكنى عنه فى الشعراء حيث قال : ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ ، أى ليأتينى فيكون لى وزيرا ، وفى القصص : ﴿ أرسله معى ردءًا ﴾ : أى أجعله لى وزيرا ، فكنى عنه بقوله : ﴿ ردءًا ﴾ لبيان الأول .

قوله تعالى : ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ وبعده ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ، لأن الرسول مصدر مُسمّى به . فحيث وحّده حمل على المصدر ، وحيث ثنّى حمل على الاسم ، ويجوز أن يقال : حيث وحّد حُمل على الرسالة ، لأنهما أرسلا لشىء واحد ، وحيث ثنى حمل على الشخصين .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ بالفاء من غير (من) وفى السجدة بالواو وبعده (من) ، لأن الفاء للتعقيب والاتصال بالأول ، فطال الكلام فحسن حذف (من) ، والواو يدل على الاستئناف ، وإتيان (من) غير مستقل .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

١ - إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها بطريق البسط والإطناب ، كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز ، كقصص إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل ، كقصة موسى عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال ، ذكر هنا قصة موسى التى أجملت فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة آدم عليه السلام ، ولم يذكر فى سورة مريم إلا اسمه فحسب .

٢ - إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفتها .

٣ - إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة . ومناسب له فى المعنى ، إذ ذكر فى آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربى المبين ليكون تبشيرا للمتقين ، وإنذارا للمعاندين ، وفى أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ
ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾

المفردات :

﴿ **لتشقى** ﴾ : أى لتتعب وتنصب .

﴿ **تذكرة** ﴾ : أى تذكيرا وعظة .

﴿ **يخشى** ﴾ : أى يخاف الله .

﴿ **العُلى** ﴾ : واحدها العليا مؤنثه الأعلى كالكبرى مؤنثه الأكبر .

﴿ **والعرش** ﴾ : فى اللغة سرير الملك ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم .

﴿ **والثرى** ﴾ : التراب الندى والمراد هنا مطلق التراب .

﴿ **وأخفى** ﴾ : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوّه به بحال .

﴿ **والأسماء** ﴾ : أى الصفات (صفات الله تعالى) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سموهم ﴾[(١)] أى صفوهم .

﴿ **والحسنى** ﴾ : مؤنث الأحسن .

قوله تعالى : ﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ : قد يكون المقصود بطه بعض حروف الهجاء التى تحدى الله بها العرب ، وجعلها إشارة إلى إعجاز هذا القرآن العظيم ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾[(٢)] .

ويرى البعض أنها بمعنى يا رجل .

﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ : بل إنه رحمة وهداية وسكينة وطمأنينة : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[(٣)] .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الرعد .

(٢) الآيات ١٩٢ - ١٩٥ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ : أى تذكيرا للغافلين إذا ما غفلوا ، فهو تنبيه وإرشاد وتوجيه لمن يخشى الله ويرجو رحمته ويخاف عذابه ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾(١) ..

قوله تعالى : ﴿ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴾ :

هذا القرآن معجزة الله فى كلماته ، كما أن الكون من سماوات وأراضين معجزات الله تعالى فى خلقه ، وقد تحدى الله جلت قدرته أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم فعجزوا ، قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾(٢) .

وتحدى العالم أن يخلقوا ذباباً فى هذا الكون : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾(٣) .

فكما أن كلمات الله معجزة ، فكذلك آياته المنظورة فى الكون معجزة ، فالآيات متلوة كانت أو منظورة إنما هى ﴿ نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ﴾(٤) .

إن الذى أنزل عليك هذا الكتاب يا محمد هو الذى خلق السموات والأرض . يعلم سركم ونجواكم ويعلم ما تكسبون .

﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ :

قال الإمام مالك رضى الله عنه : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم تتغير عما كان) .

وهذا هو قول السلف الصالح تفويض وتسليم بلا تعطيل ولا تأويل ، الله جل فى علاه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ :

فالله جل جلاله هو مالك الكون كله ، والمتصرف فيه بحكمته وعلمه وإرادته وقدرته ، فالسموات ملكه ، والأرض كذلك وما بينهما ، وله ما تحت الثرى مما اختلف ألوانه ، وتنوعت أشكاله ، له ملك

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٣ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .
(٥) الآية ٦ من سورة الفرقان .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

السموات والأرض ، فالقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، ملك فقدر ، وبطن فخبر ، وعلا فقهر ، واحد بلا عدد ، ودائم بلا أمد ، وقائم بلا عمد .

قوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ :

هذا الإله القادر علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(١) .

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾(٢) .

إن علم الله الشامل يعلم ما هو أخفى من السر ، وهو الذى عبر عنه القرآن بذات الصدور ، ما يخطر ببال الإنسان دون أن يتحدث به ، هذا الإله الذى وجب له كل كمال يليق بذاته ، واحد لا شريك له ، ولا قسيم له ، ولا شبيه له .

﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ :

وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾(٤) .

فهو صاحب الصفات الكاملة ، وهو المنزه عن أى نقص ، تقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

حديث موسى

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي
آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ
فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي
أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

المفردات :

﴿ **الحديث** ﴾ : كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو فى منامه .
﴿ **والمكث** ﴾ : الإقامة .
﴿ **آنست** ﴾ : أى أبصرت .
﴿ **آتيكم** ﴾ : أجيئكم .
﴿ **بقبس** ﴾ : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه .
﴿ **هدى** ﴾ : أى هاديا يدلنى على الطريق .
﴿ **طوى** ﴾ : (بالضم) : منونا : اسم لذلك الوادى .
﴿ **اخترتك** ﴾ : أى اصطفيتك .
﴿ **لذكرى** ﴾ : أى لتكون ذاكرا لى .
﴿ **أكاد أخفيها** ﴾ : أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية .
﴿ **هواه** ﴾ : أى ما تهواه نفسه .
﴿ **فتردى** ﴾ : أى فتهلك .

بعد أن عظّم سبحانه كتابه ، والرسول الذى أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ بالإنذار والتبشير ، أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء ، وما فعلته أممهم معهم ، وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأس بهم ، فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت

والأذى ، من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : ﴿ وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾[١] .

وبدأ بقصص موسى لأن محنته كانت أشد ، فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال ، وقابل ذلك بعزم لا يفتر ، وبقوة تفل الحديد .

﴿ **وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً** ﴾ أى وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحى إلى موسى ، وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر ، وتقرير الجواب فى نفس المخاطب ، أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ، ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً فى الرجوع إلى والدته ، فأذن له بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، فخرج وسار قاصداً مصر بعد أن طالت غيبته عنها ، فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجه ، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، وجعل يقدح بزند كان معه ليورى ناراً ، فلم تود المقدحة شيئاً ، وبينما هو يزاول ذلك ويعالجه ، إذ رأى نارا من بعد عن يسار الطريق .

﴿ **فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** ﴾ :

أى فقال لامرأته وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إنى أبصرت نارا ، وسأذهب إليها لعلنى أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هاديا يدلنى على الطريق ، وجاء فى سورة القصص : ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾[٢] .

وقصارى ذلك ـ إنه قال لأهله أقيموا مكانكم ، وإنى قد رأيت نارا فإما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه نارا تصطلون بها ، وإما أن أجد دليلاً يرشدنى إلى الطريق المسلوك ، وكان قد ضل عنه . .

﴿ **فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك** ﴾ :

أى فلما خرج موسى نحوها وجد نارا بيضاء تتقد كأصو إما يكون فى شعرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ، وهناك نودى يا موسى قال : من المتكلم ؟ قال : إنى أنا ربك ، ثم أمره أن يخلع نعليه احتراما للبقعة المقدسة فقال :

﴿ **فاخلع نعليك** ﴾ : إذ أن الحفوة أقرب إلى التواضع ، وحسن الأدب ، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين .

ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :

﴿ **إنك بالواد المقدس طوى** ﴾ : أى لأنك بالوادى المطَّهر المسمى بطوى ، فاخلعها ليحصل للقدمين بركته .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٩ من سورة القصص .

﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ :

أى وأنا اصطفيتك من قومك بالنبوة والرسالة ، فعليك أن تسمع لما أوحيه إليك .

ونحو الآية قوله : ﴿ إنِّى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾[١] .

وقصارى ذلك ـ لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له ، واجعل كل خاطرك مصروفا إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع وحضور القلب ، والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم ما يوحى إليه بقوله :

﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ :

أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

﴿ فاعبدنى ﴾ : أى وإذ كنت أنا الإله حقا ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ :

أى وأدّ الصلاة على الوجه الذى أمرتك به ، مقوّمة الأركان ، مستوفاة الشرائط لتذكرنى فيها ، وتدعونى دعاء خالصاً لا يشوبه إشراك ولا توجيه إلى سواى .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لما لها من الفضل على سواها ، إذ فيها المعبود وشغل القلب واللسان بذلك ، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾)[٢] .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾ :

أى إن الساعة آتية لا محالة ، وإنى أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق .

وقد جاء هذا على سنن العرب فى تخاطبهم ، يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التهويل والتخويف ، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة يكونون منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم وقت موته وإنقضاء أجله اشتغل

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت : ٣٧ ، ومسلم فى المساجد : ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، وأبو داود فى الصلاة : ١١ ، والترمذى فى الصلاة : ١٦ ، ١٧ ، والنسائى فى المواقيت ٥٢ ـ ٥٤ ، وابن ماجه فى الصلاة : ١٠ ، والدرامى فى الصلاة : ٢٦ ، والإمام مالك فى الصلاة : ٢٥ ، وفى السفر : ٧٧ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٠٠ ، ٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، وفى ٥ : ٢٢ .

بالمعاصى إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ، ويصلح عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى ويتوب منها فى كل حين ، خوف معاجلة الموت .

قوله تعالى : ﴿ **لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾ : أى إن الساعة آتية لا محالة ، ليجزى كل عامل بعمله ، كما قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[١] .

وقال : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٢] .

ثم خاطب سبحانه موسى محذراً له فقال :

﴿ **فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾ :

أى فلا يردنك يا موسى عن التأهب للساعة من لا يقر بقيامها ، ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، بل يركب رأسه ، ويخالف أمر ربه ونهيه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جارة) ، فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين ، كما تقدم غير مرة .

وخلاصة ذلك : لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته فى دنياه ، وعصى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾[٣] .

معجزات موسى عليه السلام

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

المفـردات :

﴿ **أتوكأ عليها** ﴾ : اعتمد عليها فى المشى والوقوف على رأس القطيع .

﴿ **وأهش بها** ﴾ : أى أخبط بها ورق الشجر .

﴿ **مآرب** ﴾ : أى منافع واحدها مأربة (مثلثلة الراء) .

﴿ **والحية** ﴾ : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع .

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٢) الآية ١٦ من سورة الطور .
(٣) الآية ١١ من سورة الليل .

﴿ والثعبان ﴾ : العظيم من الحيات .
﴿ والجان ﴾ : الصغير منها .
﴿ سيرتها الأولى ﴾ : أى حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره نبيا ، وإيحاءه إليه أن لا إله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لا محالة ، ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما دَسّى به نفسه جزاء وفاقا ، قفى على ذلك بذكر البرهانات التى آتاها موسى دلالة على نبوته ، وتصديقاً له على رسالته .

فبدأ بذكر العصا التى انقلبت حية تسعى حين ألقاها من يده ، وكان قد سأله عنها استجماعاً لقلبه ، وتهدئة لروعه فى هذا المقام الرهيب ، وإعلاماً بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن ، وجليل المنافع والمزايا ، التى لم تكن تدور بخلده عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ :

سأله سبحانه عما فى يده - وهو العليم به - ليبين له أنه سيجعل لتلك الخشبة التى ليس لها خطر كبير ، ولا منفعة عظيمة ، جليل المزايا والفوائد التى لم تكن تخطر له على بال ، كانقلابها حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبهه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ، وبالغ عظمته ، إذ أظهر لأحقر الأشياء هذه المنافع العظيمة ، على سنن الناس فى تخاطبهم ، إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشىء الحقير شيئا شريفا أن يأخذه ، ويعرضه على النظارة ، ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون : هو كذا ، فيفيض فى شرح ماله من فائق المزايا ، وجليل المنافع ، التى لم تكن تدور بخلدهم ، ولم تخطر ببالهم .

فأجابه موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا بحسب ما وصلت إليه معرفة البشر :

﴿ قال هى عصاى ﴾ : وبهذا تم الجواب ، ولكن موسى ذكر ما لها من فوائد إذ أحب مكالمة ربه ، فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

١ - ﴿ أتوكأ عليها ﴾ : أى اعتمد عليها إذا مشيت ، أو تعبت ، أو وقفت على رأس القطيع من الغنم .

٢ - ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ : أى أخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمى فتأكله .

٣ - ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ : أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك ، كحمل الزاد ، والسقى ، وطرد السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألقيتها على عاتقى فعلقت بها قوسى ، وكنانتى ، ومخلاتى ، وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .

وقد أجمل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره بإلقائها ، لتتبين لها فوائد لم يعزفها من قبل .

﴿ **قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى** ﴾ : أى قال له ربه : ألقها يا موسى لترى من شأنها ما ترى ، فألقاها فإذا هى ثعبان عظيم ، ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا ، وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ﴾[1] لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها ، ثم أمره بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .

﴿ **قال خذها ولا تخف** ﴾ : أى قال له ربه : خذها بيمينك ولا تخف منها ، وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى لا يعرف له نظير ، ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .

ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

﴿ **سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ : أى سنرجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل ، وهى العصوية ، فأقدم على ذلك برباطة جأش دون تردد ولا ذعر .

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا
ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ
أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾
هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

المفردات :

﴿ **الضم** ﴾ : الجمع وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجيب هو المراد هنا .

﴿ **والسوء** ﴾ : القبح فى كل شىء ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه .

﴿ **وآية أخرى** ﴾ : أى معجزة ثانية غير العصا .

﴿ **طغى** ﴾ : أى تجاوز الحد فى عتوّه وتجبره .

﴿ **اشرح لى صدرى** ﴾ : أى وسعه لتحمُّل أعباء الرسالة .

---

(١) الآية ١٠ من سورة النمل .

﴿ يسر لى أمرى ﴾ : أى سهّل لى ما أمرتنى من تبليغ الرسالة .
﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ : أى أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى لئلا يستخف بى الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى .
﴿ يفقهوا قولى ﴾ : أى يفهموه .
﴿ وزيرا ﴾ : أى مُعينا .
﴿ والأزر ﴾ : القوة . يقال آزره أى قوّاه وأعانه .
﴿ وأشركه فى أمرى ﴾ : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة .
﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ : أى عالمًا بأحوالنا لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ :

أى من آيات الله المعجزة الخارقة للعادة والتى يعجز جميع الخلق على الإتيان بمثلها ، فبعد معجزة العصا تأتى معجزة اليد ، كان موسى يدُخل يده فى جيبه كما جاء فى كثير من الآيات ، قال تعالى : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾(٢) ، أى بيضاء ليس بها داء البرص .

لنريك من آياتنا الكبرى ، وكل آيات الله كبرى ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ؛ إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، سبحانه يقول فى حديثه القدسى الجليل : [عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلمنى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد] .

سبحانك ربى :

لا الأمـر أمرى ولا التـدبير تـدبيـرى ولا الشئـون التـى تجـرى بتقـديـرى
لى خـالق رازق مـا شـاء يفعـل بـى أحـاط بى علمـه من قبـل تصـويـرى

قوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ :

أى تجاوز حدود العبودية ، ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾(٣) ثم طغى وتجبر وأدبر واستكبر فقال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾(٤) .

اذهب إلى هذا الطاغوت الذى خرجت فارا منه وهاربا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،

(١) الآية ١٢ من سورة النمل .
(٢) الآية ٣٢ من سورة القصص .
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة القصص .

ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الرب الأعلى .

وقال وهب بن منبه : قال الله لموسى : (انطلق برسالتى فإنك بسمعى وعينى ، وإن معك يدى وبصرى ، وإنى قد ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جند عظيم من جندى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا عنى ، حتى جحد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، وزعم أنه لا يعرفنى ، فإنى أقسم بعزتى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار ، فإن أمرت السماء حصبته ، وإن أمرت الأرض إبتلعته ، وإن أمرت الجبال دمرته ، وإن أمرت البحار أغرقته ، ولكن هان علىَّ وسقط من عينى ، ووسعه حلمى ، واستغنيت بما عندى وحقى ، إنى أنا الغنى لا غنى غيرى .

فبلغه رسالتى ، وإدعه إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى ، وذكره أيامى ، وحذره نقمتى وبأسى ، وأخبره أنه لا يقوم شىء بغضبى ، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، وأخبره أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ، ولا يرد عنك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى ، وقل له : أجب ربك ، فإنه واسع المغفرة ، وقد أمهلك أربعمائة سنة فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتتمثل به ، وتصد عباده عن سبيله ، وهو يمطر عليك السماء ، وينبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ، ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل ، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم ، وجاهده بنفسك وأخيك ، وأنتما تحتسبان بجهاده ، فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت .

ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه ، أن الفئة القليلة ولا قليل منى تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا تعجبنكما زينته ، ولا ما متع به ولا تمدا إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين ، ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى .

وقديما ما جرت عادتى فى ذلك ، فإنى لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعى الشفيق أبله عن مبارك الغرة ، وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم فى دار كرامتى ، سالما موفرا ، لم تكلمه الدنيا .

وأعلم أنه لا يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ فيما عندى من الزهد فى الدنيا ، فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقا حقا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل قلبك ولسانك .

وأعلم أنه من أهان لى وليا أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة ، وبادأنى ، وعرض لى نفسه ودعانى إليها ، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى .

أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى ، أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى ، وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة ، لا أكل نصرتهم إلى غيرى) . رواه ابن أبى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ **قال رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا** ﴾ .

لما أمر الله تعالى نبيه موسى بالذهاب إلى فرعون ، وكما قال له فى سورة الشعراء : ﴿ أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون ﴾[١] .

سأل موسى ربه تلك الدعوات الطيبة ، فقد علم أنه ذاهب إلى جبار عنيد ، لا تلين له قناة ، لأنه غليظ الكبد ، لو وزعت قسوة قلبه على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، فهو رجل حديد الفؤاد ، حديد اللسان .

سأل موسى ربه أن يفسح له فى صدره ، حتى يصبر على جهالة هذا الجهول : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾[٢] .

والحلم على مثل هذا أمر مرغوب فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾[٣] .

إن الخطب جسيم ، وإن الهول عظيم ، من أجل ذلك قال موسى لربه ﴿ **ويسر لى أمرى** ﴾ ، فلا سهل إلا ما جعله الله سهلا ، وهو سبحانه الذى يجعل الصعب سهلاً .

كما سأل موسى ربه حل عقدة من لسانه ، وكان فى لسانه حُبْسة تمنعه من كثير من الكلام .

وفى آية أخرى ، قال : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءًا يصدقنى ﴾[٤] وهنا يقول : ﴿ **واجعل لى وزيراً من أهلى * هارون أخى** ﴾ أى معينا .

ومن ثم قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾[٥] .

ومن ثم قال ﴿ **اشدد به أزرى** ﴾ : أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، حتى

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٤ من سورة القصص .
(٣) الآيات ١٧ - ١٩ من سورة النازعات .
(٤) الآية ٣٤ من سورة القصص .
(٥) الآيات ٥١ - ٥٣ من سورة مريم .

نتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

﴿ كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا ﴾ :

أى لكى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفضال التى من بينها ما يدعيه فرعون الطاغية ، وفئته الباغية من الألوهية له ، ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى القصد من الإنفراد ، فكل من النبيين يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله فى حالة الإنفراد .

﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ : أى عليما بأحوالنا وأن ما طلبناه مما يفيدنا فى تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هارون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين ، وكبح جماح المضلين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

تذكير وتكليف

قال تعالى :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ
مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ
لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ
ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ
لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ
﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

المفردات :

﴿ السؤل ﴾ : بمعنى المسئول : أى المطلوب .

﴿ مننّا ﴾ : أى أنعمنا مرة أخرى : أى فى وقت آخر غير هذا الوقت .

﴿ أوحينا ﴾ : أى ألهمنا كما جاء فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾[1] وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ﴾[2] .

﴿ اقذفيه ﴾ : أى ألقيه واطرحيه .

﴿ واليم ﴾ : البحر والمراد به هنا نهر النيل .

﴿ والساحل ﴾ : الشاطىء .

﴿ ولتصنع على عينى ﴾ : أى ولتُربى وتغذى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشىء بعينيه دلالة على عنايته به .

﴿ يكفله ﴾ : أى يضمه إلى نفسه .

﴿ تقر عينها ﴾ : أى تسر .

﴿ والغم ﴾ : الكدر الناشىء من خوف شىء أو فوات مقصود .

﴿ والفتون ﴾ : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها .

﴿ لبثت ﴾ : أى أقمت .

﴿ مدين ﴾ : بلد الشام .

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ١١١ من سورة المائدة .

﴿ الآيات ﴾ : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له : فائت بآية ، ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك .

﴿ ولا تنيا ﴾ : أى لا تفترا ولا تقصرا .

﴿ فى ذكرى ﴾ : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها .

﴿ طغى ﴾ : أى تجاوز الحد .

﴿ قولا لينا ﴾ : أى لا عنف فيه ولا غلظة .

﴿ يتذكر ﴾ : أى يتأمل فيذعن للحق ويؤمن .

﴿ يخشى ﴾ : أى يخاف من بطش الله وعذابه .

﴿ يفرط ﴾ : أى يعجل بالعقوبة ، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل .

﴿ يطغى ﴾ : أى يزداد طغيانا .

﴿ أسمع وأرى ﴾ : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل .

﴿ فأتياه ﴾ : أى فقابلاه وجها لوجه .

﴿ فأرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ : أى فأطلقهم من الأسر .

﴿ ولا تعذبهم ﴾ : ولا تبقيهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير فى شاق الأعمال .

﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله الهادية إلى الحق .

﴿ تولى ﴾ : أى أعرض .

﴿ أعطى كل شىء خلْقه ﴾ : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع .

﴿ ثم هدى ﴾ : أى ثم عرفه كيف ينتفع بما أعطى له .

﴿ البـال ﴾ : الفكر .

﴿ فى كتاب ﴾ : أى دفتر مقيد فيه ، والمراد بذلك كمال علمه الذى لا يضيع منه شىء .

﴿ ضل الشىء ﴾ : أخطأه ولم يهتد إليه .

﴿ ونسيه ﴾ : ذهب عنه ولم يخطر بباله .

﴿ والمهد ﴾ : ما يمهد للصبى ويفرش له أى جعل الأرض كالمهد .

﴿ وسلك ﴾ : أى سهل .

﴿ والسبل ﴾ : واحدها سبيل : أى طريق .

﴿ أزواجا ﴾ : أى أصنافا .

﴿ شتى ﴾ : واحدها شتيت كمريض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل .

﴿ لآيات ﴾ : أى لدلالات .

﴿ والنُّهى ﴾ : واحدها نهية وهى العقل سمى بها لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .
قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ :

بعد ما سأل موسى ربه أن يشرح صدره وييسر أمره ، ويفك حبسة لسانه ليفقهوا قوله ، وأن يجعل له وزيرا من أهله ، استجاب الله له وقال ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ : أى أعطيت ما سألت :

يا من يجيب دعى المضطر فى الظلم ويكشف الضر والبلوى مع السقم
استحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت
إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية

ثم ذكر الله تعالى موسى بنعمه السالفة عليه ، فقال له : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ .

ثم فسر هذا الوحى والإلهام بقوله : ﴿ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾ .

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[1] .

وفى قوله تعالى ﴿ فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ﴾ : ما يفيد مدى جبروت فرعون ، فقد جعل الله منه عدوين ، فانظر إلى هذا الجبار العنيد ، ثم تأمل عداوته لله وعداوته لموسى ، ثم أعجب معى كيف يرسل موسى إلى عدوه فى التابوت ، وكيف يرسو التابوت فى الساحل ، قال تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾[2] .

ولكن ماذا تفعل الدنيا مجتمعة بجانب عناية الله وإرادته وعلمه وقدرته :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمانُ

وماذا يصنع فرعون بجنوده وخيله ورجله وجواسيسه بجانب قدرة من لا يغفل ولا ينام ، تأمل معى قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾ :

أى تربى على عنايتى ورعايتى ، إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ، إنها عناية الله سبقت إلى قصر فرعون : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾[3] .

(١) الآية ٧ من سورة القصص .
(٢) الآية ٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ٩ من سورة القصص .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بُليت فثق بالله وارض به إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد فحسبك الله فى كل لك الله

ثم يذكر الله موسى بما كان من أخته ، فيقول : ﴿ **إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله** ﴾ :

وذلك لما حرم الله عليه المراضع تحريم منع لا تحريم شرع ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وفى سورة القصص يقول جل شأنه : ﴿ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[1] .

ثم يذكره بذلك الذى قتله موسى : ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ﴾[2] ، فيقول : ﴿ **وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا** ﴾ :

والغم هنا ما حدث له من الحزن والهم عندما أصر آل فرعون على قتله ، ففر منهم هاربا حتى ورد ماء مدين ، وقال له الرجل الصالح : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ : قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى رحمه الله فى كتاب التفسير من سننه قوله : ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ (حديث الفتون) :

فاخرج بسنده عن سعيد بن جبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام ﴿ **وفتناك فتوناً** ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثاً طويلاً ، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون ، فقال : (تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك ، قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم . فقال فرعون : كيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك .

فلما رأوا الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : ليوشكن أن تفنوا بنى إسرائيل ، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى يكفونكم ، فاقتلوا عاما كل مولود

---

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة القصص
(٢) الآية ١٦ من سورة القصص .
(٣) الآية ٢٥ من سورة القصص .

ذكراً ، واتركوا بناتهم ، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن يستحيون منهم ، فتخافوا مكاثرتهم . وإياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع فى قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو فى بطن أمه مما يراد به .

فأوحى الله إليها أن لا تخافى ولا تحزنى : إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم ، فلما ولدت فعلت ذلك .

فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها : ما فعلت بابنى ، لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلىّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه ؟ فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جوارى امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فأردن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن فى هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا ، حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاما ، فألقى الله عليها منه محبة لم يلق منها على أحد قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شىء إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون ، فاستوهبه منه فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم ، فأتت فرعون ، فقالت : قرة عين لى ولك . فقال فرعون : يكون لك ، فأما لى فلا حاجة لى فيه ، فقال رسول الله ﷺ : (والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك) .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها أن تختار له ظئراً ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم يقبل .

وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته : قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً ؟ أحىّ ابنى أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد وهو إلى جنبه . وهو لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فأخذوها ، فقالوا : ما يدريك ما نُصْحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا فى ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ، ورجاء منفعة الملك ، فتركوها فانطلقت ، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر . فجاءت أمه فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا . وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا . فأرسلت إليها

فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بهاقالت : امكثى ترضعى ابنى هذا فإنى لم أحب شيئا حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا آلوه خيرا ، فإنى غير تاركة بيتى وولدى .

وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه ، فتجاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده . فرجعت به إلى بيتها من يومها . وأنبته الله نباتا حسناً وحفظه لما قضى فيه . فلم يزل بنو إسرائيل وهم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيرينى ابنى ، فدعتها يوماً تزيرها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أمينا يحصى ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها بجلته وأكرمته ، وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه .

ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنّه وليكرمنّه ، فلما دخلت به عليه جعله فى حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به .

وأريد به فتوناً فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى ؟ فقالت : اجعل بينى وبينك أمراً يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به ؛ وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده ، وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة . حتى امتنعوا كل الامتناع .

فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان ، أحدهما فرعونى ، والآخر إسرائيلى ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل وحفظه لهم ، لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعونى فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى ، فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، ثم قال : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] .

(١) الآية ١٦ من سورة القصص .

فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون . فخذ لنا بحقنا ، ولا ترخص لهم . فقال : ابغونى قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذا بموسى من الغد ، قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فصادف موسى فندم على ما كان منه ، وكره الذى رأى ، فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم : إنك لغوى مبين ، فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعدما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى ، فخاف أن يكون بعدما قال له إنك لغوى مبين أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده . إنما أراد الفرعونى ، فخاف الإسرائيلى وقال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا .

وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ، ولم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾(١) يعنى بذلك حابستين غنمهما ، فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما نسقى من فضول صياخهم ، فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما .

وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾(٢) .

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا ، فقال : إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ، ولسنا فى مملكته .

فقالت إحداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾(٣) فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له ،

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القصص .
(٢) الآية ٢٤ من سورة القصص .
(٣) الآية ٢٦ من سورة القصص .

فلما علم إنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لى : امشى خلفى ، وانعتى لى الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فسرِّى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت .

فقال له هل لك : ﴿ أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾[1] .

ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت سنتان عدة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً .

قال سعيد وهو ابن جبير : فلقينىَ رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدرى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانيا كانت على نبى الله واجبة ، لم يكن نبى الله لينقص منها شيئا ، ويعلم أن الله قاضيا عن موسى عدته التى كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك ، فقال : الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص عليك فى القرآن ، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون فى القتيل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فآتاه الله سؤله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوصى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون عليه السلام .

فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فقالا : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذى قصَّ الله عليك فى القرآن ، قال : فما تريدان ؟ وذكَّره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن بالله ، وترسل معنا بنى إسرائيل ، فأبى عليه وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فاقتحم عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعنى من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول .

فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له هذان لساحران ﴿ **يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ يعنى ملكهم الذى هم فيه ، والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب ، وقالوا له : أجمع لهما السحرة . فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما .

فأرسل إلى المدائن ، فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قال : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال

(١) الآية ٢٧ من سورة القصص .

والعصى الذى نعمل ، فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى ، وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

قال سعيد بن جبير فحدثنى ابن عباس : أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء .

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾[١] : يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ، فـ ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾[٢] .

فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه : أن ألق عصاك . فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها . فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه ، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته .

فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من الله عز وجل آمنا بالله ، وبما جاء به موسى من عند الله ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون : ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾[٣] .

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء آية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟

فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ، ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك أخلف موعده ، ونكث عهده .

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه ، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر ، وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصيا لله .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الشعراء .
(٢) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة طه .
(٣) الآية ١١٩ من سورة الأعراف .

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى ، فلما أن جاوزموسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر ، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[1] .

قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى .

فأنزلهم موسى منزلاً ، وقال : اطيعوا هارون فإنى قد استخلفته عليكم فإنى ذاهب إلى ربى ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فـم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم فطرت ؟ وهو أعلم بالذى كان ، قال : يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح ، قال : أوعلمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، ارجع فصم عشرا ثم ائتنى ، ففعل موسى عليه السلام ما أمر به .

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم ، وقال : أنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ، فإنى أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية . ولسنا برادّين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقته ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر صيران لبنى إسرائيل ، ولم يكن من بنى إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة ، فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام : يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك ؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما كان فى الحفيرة من متاع أوحلية أونحاس أوحديد فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ولا خوار .

قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل فى دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك ، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ، فقالت فرقة : يا سامرى ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق . فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ،

(١) الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأعراف .

فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان ، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل ، وأعلنوا التكذيب به .

فقال لهم هارون : ﴿ **يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا ، هذه ثلاثون يوما قد مضت ، وقال بسفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه .

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقى من بعده : ﴿ رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾(١) فقال لهم : ما سمعتم فى القرآن ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره ، واستغفر له .

وانصرف إلى السامرى فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟

قال : ﴿ **قبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم : ﴿ **فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا** ﴾ .

ولو كان إلها لم يخلص إلى منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا عملنا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير خيار بنى إسرائيل ، ومن لم يشرك فى العجل ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبى الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل ، فقال : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾(٢) .

وفيهم من كان الله أطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض . فقال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾(٣) .

فقال : يارب سألتك التوبة لقومى ، فقال : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى . هلا أخرتنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة ؟ فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقى من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون ، وأطلع على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول .

---

(١) الآية ١٥٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل عليهم وأبوا أن يقرّوا بها ، ففتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم .

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيبا من عظمها ، فقالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال : رجلان من الذين يخافون ـ قيل ليزيد هكذا قرأت قال نعم من الجبارين ـ آمنا بموسى وخرجا إليه ، قالوا : نحن أعلم بقومنا ، إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون .

ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾[1] .

فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك ، لما رأى من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذٍ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام فى التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعا .

وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فى كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس [2] رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ ، وصدق ذلك عندى (أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث ، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل . فقال : كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى ، فقال له يا أبا اسحاق : هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره) . وهكذا رواه النسائى فى السنن الكبرى .

قوله تعالى : ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى* واصطنعتك لنفسى ﴾ .

هذا الخطاب من الله تعالى لكليمه موسى ، يذكره فيه بالسنين التى قضاها بين أهل مدين

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٦٩ .

بعدما سقى الغنم لابنتى الشيخ الصالح ، وقالت إحداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾(١) . فقال له أبوهما : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على * والله على ما نقول وكيل ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ :

أى على موعد قدرته ووقت أقته ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً * قال لأهله : امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ : أى اصطفيتك لرسالتى كما فى قوله تعالى : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ﴾ : أى لا تبطئا فى تبليغ ذكرى إلى فرعون .

والآيات هى المعجزات التى أجراها الله على يدى موسى .

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ : وتجاوز حدود العبودية فقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾(٥) وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾(٦) .

﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ : جاء فى تفسير القول اللين أنه فى هذه الآية عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، كما قال يزيد الرقاش عند قوله : ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ :

يـا من يتحبب إلى من يعاديـه   فكيف بمن يتـولاه ويـنـاديـه ؟

وقال وهب بن منبه : (قولا له إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة) وعن عكرمة فى قوله ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ قال : (لا إله إلا الله) .

وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى : ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ : أعذرا إليه قولا له : إن لك ربا ولك معادا وإن بين يديك جنة وناراً .

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ، وليكون أوقع فى النفوس ، وأبلغ وأنجع ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٧) .

(١) الآية ٢٦ من سورة القصص .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة القصص .
(٣) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة القصص .
(٤) الآية ١١٤ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٢٤ من سورة النازعات .
(٦) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٧) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

وقوله تعالى : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ : أى لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ، أو يخشى : أى يوجد طاعة من خشيته ربه كما قال تعالى ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ فالتذكير الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة .

وقال الحسن البصرى : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه .

وفى هذا المقام يقول زيد بن عمرو بن نفيل شعرا رواه ابن اسحاق عن أمية بن أبى الصلت :

وأنت الذى من فضل ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان باغيا
فقولا له هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رفعت هذه ... بلا عمد ارفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها ... منيرا إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

لما قرأ قتادة رضى الله عنه قوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولا لينا * لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ : قال : سبحانك ربى إذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : أنا ربكم الأعلى فكيف حلمك بعبد قال : سبحان ربى الأعلى . وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾(١) فكيف حلمك بعبد قال : (لا إله إلا الله) .

قوله تعالى : ﴿ قالا ربَّنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى * فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذَّبَ وتولى ﴾ :

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عما قاله موسى وهارون ، فقد أخبرا أنهما يخافان أن يفرط عليهما فرعون ، أى يعجل عليهما بالعقوبة ، ويبادرهما بالنكال قبل أن يبلغا رسالة ربِّهما ، أو أن يطغى فيتجاوز حدود العبودية ويسىء الأدب مع الذات الإلهية ، فكانت الإجابة ﴿ **لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ :

أسمع ما يقال وأرى ما يحدث . فسبحان من أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾(٢) .

(١) الآية ٣٨ من سورة القصص .

(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .

سبحانك ربى الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك . علوت فقهرت ، وبطنت فخبرت ، وملكت فقدرت ، لا يشغلك سائل ، ولا ينقصك نائل .

إن من كان الله معه لا يخيب سعيه ، ولا تزل قدميه ، ولا يضل سؤله . وماذا فقد من وجد الله ؟ وماذا وجد من تخلى عنه السلطان الأعلى ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾[١] ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم** ﴾ :

وذلك كما جاء فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ : هو كقوله جلَّ شأنه : ﴿ وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **والسلام على من اتبَع الهدى** ﴾ : ذلك لأن السلام طمأنينة وأمان ، وأهل الهدى هم أهل الأمان والطمأنينة ، فإن اتبعت الهدى فأنت منهم تفوز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

قال الزجَّاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب اهـ .

ويمثل هذا كتب رسول الله ﷺ إلى هِرَقل ملك الروم قال : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين)[٥] .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ **إنا قد أوحىَ إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ : هذا مقتضى العدالة الإلهية ، وهذا هو القول السديد الذى يخاطب العقل الرشيد بالمنطق العادل : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٦] .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النور .

(٣) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة القصص .

(٤) الآيات ١٠٤ـ١٠٨ من سورة الأعراف

(٥) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ٦ وفى الجهاد : ١٠٢ ، وفى تفسير سورة ٣ : ٤ ومسلم فى الجهاد : ٧٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ١٠ والإمام أحمد فى ١ : ٢٦٣ ، وفى ٤ : ٢٥٧ ، ٣٧٨ .

(٦) الآية : ٤٤ من سورة يونس .

﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾(١) .

قال جلَّ شأنه : ﴿ فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ﴾(٢) .

وأخذ فرعون يتساءل : ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ :

وإنما سأل فرعون هذا السؤال لأنه كان يقول : ما علمت لكم من إله غيرى ، وكان يقول : أنا ربكم الأعلى ، فسألهما هذا السؤال فأجابا : ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ أى ربنا الذى أعطى كل شىء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم . ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه ويرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوان وإما طبعا كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا : ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق بما قُدِّر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

وقال بعض المفسرين : أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، كقوله تعالى ﴿ الذى قدر فهدى ﴾(٣) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه أى كتب الأعمال والآجال ، والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول ربنا الذى خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد .

ثم سأل فرعون : ﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ :

أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟

فأجاب موسى : ﴿ **قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ :

أى أن ذلك من علوم الغيب لا يعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لا يشذ عنه شىء ، ولا يفوته شىء ، لا كبير ولا صغير ، ولا ينسى شيئا ، وسيجزيهم بما علموا جزاء وفاقا .

وقصارى ذلك ـ إن علمه تعالى محيط بكل شىء ، وأنه لا ينسى شيئا ، تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتريه النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها .

وإنما سأل فرعون هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة ، فيستبين للناس

(١) الآيات ٥ ـ ١٠ من سورة الليل . (٢) الآيات ٣١ ـ ٣٥ من سورة القيامة . (٣) الآية ٣ من سورة الأعلى .

صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التى لا تعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز فى رده ووكل أمر ذلك إلى ربه وإجمال سؤاله ـ إنه إذا كان الأمر كما ذكرت ففصِّل لنا حال الماضيين من سعادة وشقاء ، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله .

ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوحدانية فقال : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا** ﴾ أى ربى الذى لا يضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد ، تتمهدّونها وتستقرون عليها ، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها .

﴿ **وسلك لكم فيها سبلا** ﴾ : أى وجعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكون من قطر إلى قطر ، لتقضوا مآربكم ، وتنتفعوا بمرافقها .

ونحو الآية قوله : ﴿ وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾[1] .

﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** ﴾ : أى وأنزل من السماء مطرا فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة ؛ وهى أيضاً مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للإنسان ، وبعضها يصلح للحيوان ؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع .

﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم** ﴾ : أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وادعوا أنعامكم فشىء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم ، وشىء أعد لأنعامكم قوتا لها أخضر ويابسا .

﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ : أى فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه ـ لأدلة على وحدانيته وأنه لا إله غيره إذا كنتم من ذوى العقول الراجحة والأفكار الثاقبة .

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء بين أنها غير مقصودة لذاتها ، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال سبحانه :

﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ :

أى من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ، وفيها نعيدكم أى وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾[2] وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[3] .

أخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : (لما وُضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله)[4] .

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الاسراء .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأعراف

(٤) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٧ ، ٤٠ ، وفى ٥ : ٢٥٤ .

يوم الزينة

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ
ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ
مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ
يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى
فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ
لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ
لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن
تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا
لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ
فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

المفردات :

﴿ أبى ﴾ : امتنع .
﴿ موعد ﴾ : أى ميعادا معينا .
﴿ سُوى ﴾ : مستويا لا جبال فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة .
﴿ يوم الزينة ﴾ : يوم عيد كان لهم .
﴿ يحشر الناس ﴾ : أى يجمعون .
﴿ والضحى ﴾ : وقت ارتفاع النهار .
﴿ فتولى فرعون ﴾ : أى انصرف عن المجلس .
﴿ كيده ﴾ : أى ما يكيد به من السحرة وأدواتهم .
﴿ أتى ﴾ : أى أتى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة .
﴿ ويلكم ﴾ : أى هلاك لكم .
﴿ والإفتراء ﴾ : الاختلاق والكذب .
﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد .
﴿ فتنازعوا ﴾ : أى فتفاوضوا وتشاوروا .
﴿ وأسروا النجوى ﴾ : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم .
﴿ بطريقتكم المثلى ﴾ : أى بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها .
﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه .
﴿ صفا ﴾ : أى مصطفين لأنه أهيب للصدور .
﴿ أفلح ﴾ : أى فاز بالمطلوب .
﴿ استَعلى ﴾ : أى غلب .
﴿ إيجاس الخوف ﴾ : الإحساس بشىء منه .
﴿ ما فى يمينك ﴾ : هى العصا وأبهمها تفخيما لشأنها .
﴿ وتلقف ﴾ : تبتلع بقوة وسرعة .

﴿ **صنعوا** ﴾ : أى دوَّروا وافتعلوا .

﴿ **كيد ساحر** ﴾ : أى كيد سحرىّ لا حقيقة له ولا ثبات .

﴿ **حيث أتى** ﴾ : أى أينما كان .

﴿ **كبيركم** ﴾ : أى زعيمكم ومعلمكم . قال الكسائى : الصبى بالحجاز إذا جاء من عند مُعلمه قال جئت من عند كبيرى .

﴿ **من خلاف** ﴾ : أى من حال مختلفة ، فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى .

﴿ **أشد عذاباً** ﴾ : أى أروم .

﴿ **نؤثرك** ﴾ : أى نفضّلك ونختارك .

﴿ **فطرنا** ﴾ : أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم .

﴿ **فاقض** ﴾ : أى فأحكم .

﴿ **جنات عدن** ﴾ : أى جنات أعدت للإقامة .

﴿ **من تحتها** ﴾ : أى من تحت غرفها .

﴿ **تزكى** ﴾ : أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى .

﴿ **السرى والإسراء** ﴾ : السير ليلاً .

﴿ **اضرب لهم** ﴾ : أى أجعل لهم .

﴿ **يبسا** ﴾ : أى طريقا يابسا لا ماء فيه .

﴿ **والدرك** (بالفتح والسكون) ﴾ : الإدراك واللحوق .

﴿ **تخشى** ﴾ : أى تخاف غرقا .

﴿ **واتبع وتَبع** ﴾ : بمعنى .

﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ : أى فعمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل الذى لا يعلم كنهه إلا الله .

﴿ **وأضل فرعون قومه** ﴾ : أى سلك بهم مسلكا أدّاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم ، إذا غرقوا فأدخلوا ناراً .

﴿ **وما هدى** ﴾ : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى ، قفى على ذلك ببيان أنه بصَّره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله : ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ وقوله : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا** ﴾ والدالة على نبوته كإلقاء العصا وصيرورتها ثعبانا ، ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، فعلم كل هذا وكذب به كفراً وعناداً كما قال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾[1] .

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .

وبعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه ، وهو يوم الزينة يوم عيد لهم ، أردف ذلك ذكر ما دبره فرعون بعد إنصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك .

ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لا قبل لهم به ، إن أقدموا على ما هم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، وبالغوا فى إخفاء ما يريدون ، وقالوا ما موسى وهارون إلا ساحران يريدان أن يغلباكم ويخرجاكم من دياركم ، ويرجوان أن تتركوا دينكم ، وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقوا دينهما ، فحذار أن تفعلوا ذلك ، ولا يتخلفن منكم أحد ، وائتوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

وبعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة ، وذكر أنهم قالوا ائتوا صفا ، ذكر أنهم بعد أن أتوا خيروه أن يبدأ بإلقاء ما معه أو أن يبدءواهم ، فاختار الثانية ، وحين بدءوا فألقوا حبالهم وعصيهم خاف موسى عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه : ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك** ﴾ . فسيكون لك الفوز والظفر عليهم .

وقد تحقق ما وعد الله به ، وكتب له النصر وآمن به السحرة ، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار ، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسيصلبهم فى جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالإزدراء والسخرية ، وقالوا : إنما أنت مسلط علينا فى هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يُقدر قدره ، ففى جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبعد ذلك أردف سبحانه ذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور ، وطوى فى البَيْن ، ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غُلبت السحرة ، من الآيات المفصلة التى حدثت على يد موسى فى مدى عشرين سنة ، بحسب ما فصل فى سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث فى عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلاً من مصر .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى** ﴾ :

أى ولقد أطلعناه على الآيات فرآها رأى العين كما قال رب العالمين : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾(١) وذلك بعد قوله جل شأنه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا ﴾(٢) .

(١) الآية ١٠٢ من سورة الاسراء .

(٢) الآية ١٠١ من سورة الاسراء .

فماذا كان موقفه ؟ كذّب بالآيات ، وأبى الإذعان للحق ، وهنا مكمن الداء وعلة العلل ، فالتكذيب بآيات الله هو الطامة الكبرى ، وبطر الحق هو المصيبة العظمى ، وهل أهلك الله الأمم إلا بعد تكذيبها وإبائها قبول الحق .

قال تعالى فى حق ثمود : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾(١) .

وسورة الشعراء حافلة بهذا المعنى اقرأ قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾(٢) واقرأ ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾(٣) واقرأ ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾(٤) واقرأ ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾(٥) واقرأ ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾(٦) .

لقد كان فرعون يعلم أن هذه الآيات ليست من صنع البشر إنما هى من صنع خالق القوى والقدر قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾(٧) .

لقد لج فرعون فى عتوه ونفوره كما هى عادة أهل الباطل ودينهم قال : ﴿ **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** ﴾ فسمّى المعجزات سحراً ، مع أنها حقائق ، أما السحر فتخيلات وأوهام ؛ تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ، قال تعالى : ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ .

وما كان موسى يسعى أبداً إلى إخراج فرعون من أرضه ، إنما أراد أن يخرجه من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد ، لقد قال له ذات يوم : يا فرعون آمن بالله ولك ملك مصر فى الدنيا ولك الجنة فى الآخرة ، وأوشك فرعون أن يقتنع . لكنه أمهل موسى حتى يستشير هامان ، وبئس المستشار هو ، فقال له هامان : أضحك عليك موسى أبعد ما كنت إلها معبوداً تصير عبداً عابداً ﴿ فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾(٨) .

وقال فرعون : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾(٩) .

فماذا قال لموسى ؟ قال : ﴿ **فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سُوى** ﴾ :

---

(١) الآية ١١ ـ ١٥ من سورة الشمس .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ١٢٣ من سورة الشعراء .
(٤) الآية ١٤١ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ١٦٠ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ١٧٦ من سورة الشعراء .
(٧) الآية ١٤ من سورة النمل .
(٨) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٩) الآيتان ٣٨ ـ ٤٠ من سورة القصص .

اختار تحديد الزمان والمكان ، واشترط أن يكون المكان مستويا لا يحجبه بناء ولا جبل ، بل على أرض مبسوطة لا يمنع الرؤية فيها مانع ، حتى يرى الناس جميعا .

قال موسى : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ : وهو يوم عيد لهم .

﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ : أي والشمس فى شبابها بحيث يكثر اجتماع الناس ، حتى يكون هذا اليوم يوما مشهودا .

قوله تعالى : ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ :

هذا إخبار من الله تعالى بأن فرعون لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين ، تولى : أى شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى السحر فى ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقا جدا ، كما قال تعالى : ﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾[1] .

ثم أتى ، أى اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، وجلس فرعون على سرير مملكته ، واصطف له أكابر دولته ، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئا على عصاه ، ومعه أخوه هارون . ووقفت السحرة بين يدى فرعون صفوفا ، وهو يحرضهم ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم ، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ، يقولون : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾[2] .

فقال لهم موسى محذراً ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذباً** ﴾ : أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وإنها مخلوقة ، وليست مخلوقة ، فتكونون قد كذبتم على الله .

﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾ : أى يهلككم بعقوبة هلاكا لا بقية له .

﴿ **وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ .

قيل معناه : أنهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر ، إنما هذا كلام نبى ، وقائل يقول : بل هو ساحر .

قوله تعالى : ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ أى بالغوا فى حديث يدور بينهم سراً .

فماذا قالوا ؟ ﴿ **قالوا إن هذان لساحران** ﴾ : أى خبيران بضروب السحر ، ﴿ **يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما** ﴾ وذلك إذا انتصرا ، وكانت لهما الغلبة ، واتبعهما الناس فإنهما عندئذ سيذهبان بطريقتكم المثلى ، ومذهبكم الأفضل ، كما قال فرعون : ﴿ إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[3] بعد أن قال : ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة يونس .

(٢) الآيات ١١٣ ، ١١٤ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٢٦ من سورة غافر .

﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :

أى اجتمعوا كلكم صفا واحدا ، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا هذا وأخاه .

﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :

أى منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا فرعون العطاء الجزيل ، وأما موسى فينال الرياسة العظيمة .

قوله تعالى :

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى* قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى* فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام ، أنهم قالوا لموسى : **﴿ إما أن تلقى ﴾** أى أنت أولاً **﴿ وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا ﴾** : أى أنتم أولاً ، لنرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جلية أمرهم .

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ : وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿ قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾[(١)] ، وقال تعالى : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾[(٢)] .

وقال ههنا : **﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾** :

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تتحرك باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جما غفيرا ، وجمعا كثيرا ، فألقى كل منهم عصا وحبلا ، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضهم بعضا .

وقوله : **﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾** : أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ، ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه .

فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن **﴿ ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾** يعنى عصاك ، فإذا هى تلقف ما صنعوا ، وذلك أنها صارت ثعبانا عظيما هائلا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهرة نهارا ضحوة ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق ، وبطل السحر .

ولهذا قال تعالى : **﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾** .

(١) الآية ٤٤ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة الأعراف .

قال ﷺ : (إذا أخذتم - يعني الساحر - فاقتلوه - ثم قرأ **﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾** . قال : لا يؤمن حيث وجد)(١) .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ **قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾(٢) .

فماذا قال السحرة بعد ذلك ؟

إنهم لما عاينوا ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه ، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون ، فعند ذلك وقعوا سجدا لله ، وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

وسبحان من قال ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون** ﴾(٣) .

وسبحان مقلب القلوب ، لقد أقسموا فى الصباح بعزة فرعون وقالوا : إنا لنحن الغالبون ، وفى المساء قالوا لفرعون : ﴿ **لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ .

وأقسموا بالله قائلين : ﴿ **والذى فطرنا * فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا** ﴾ .

كانوا وقت الضحى سحرة كفرة ، فأمسوا عند غروب الشمس شهداء بررة .

﴿ **فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى** ﴾ .

فماذا قال فرعون ؟

لقد جُن جنونه ، وثارت ثورته ، واشتاط غضبا ، وقال : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى * قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾ :

لقد هدد وأوعد ، وأرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ﴿ **إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ثم أدبر واستكبر** ﴾(٤) .

لقد عبس وبسر . واستعمل كل آلات التنكيل ، منكراً عليهم إيمانهم بالله الواحد الحق : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ : كأن الإيمان حكرا عليه ، ومن لم يستأذنه فهو خارج عن حدود الطاعة ، فله الويل والثبور ، وعظائم الأمور ، ونسى أن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩٠ ، ١٩١ . وأبو داود فى الامارة : ٣١ .
(٢) الآيات ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس .
(٣) الآيات ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة المدثر .

يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا .

لقد هددهم بقطع الأيدى والأرجل من خلاف ، فليفعل ما يشاء .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ .

ولن نختارك على ما ظهر أمامنا من آيات الحق ، وأقسموا بالله الذى فطرهم وخلقهم ، وقالوا له بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ .

وفى التعبير بالاسم الموصول ، أى فاقض بالذى أنت قاضيه ما يفيد العموم ، إن شئت فاقطع الأيدى والأرجل ، وإن شئت فاقطع الرقاب ، وإن شئت فافعل ما تشاء .

﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ .

وفى التعبير باسم الإشارة (هذه) ما يفيد أن الدنيا عرض زائل ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ : فنحن براء من سحرك وباطلك وزيفك ، لقد قال لهم : ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ فقالوا له : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت .

قوله تعالى :

﴿ إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ :

هكذا مصير كل من انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، إن كان مجرما فإن له جهنم لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة طيبة : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[(١)] ، ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾[(٢)] .

قال تعالى : ﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ .

فالجنة درجات ، والنار دركات ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، والمؤمنون ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[(١)] .

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء . (٢) الآية ٥٧ من سورة النساء . (٣) الآيات ٢ - ١١ من سورة المؤمنون .

﴿ جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ : حيث لا موت ، فقد انتهت الدنيا ، وبدأت الآخرة فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ، نادى مناد بين الجنة والنار : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .

إن أهل الجنة استحقوا هذا النعيم ؛ لأنهم تطهروا من الرجس والدنس فخلصت نفوسهم بالأعمال الصالحة ، وزكت بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ :

يقول تعالى مخبرا أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل ، أن يسرى بهم فى الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة .

وذلك أن موسى لما خرج ببنى إسرائيل ، أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب . فغضب فرعون غضبا شديدا ، وأرسل فى المدائن حاشرين أى من يجمعون له الجند من بلدانه ، يقول : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون ﴾[(١)] .

ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه ، ساق فى طلبهم فأتبعوهم مشرقين ، أى عند طلوع الشمس .

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ : أى نظر كل من الفريقين إلى الآخر : ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلاَّ إن معى ربى سيهدين ﴾[(٢)] .

ووقف موسى ببنى إسرائيل البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم .

فعند ذلك أوحى الله إليه أن اضرب لهم طريقا يبسا ، فضرب البحر بعصاه ، وقال : انفلق علىّ بإذن الله ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أى الجبل العظيم ، فأرسل الله الريح على أرض البحر ، فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض .

فلهذا قال : ﴿ فاضرب لهم طريقا فى البحر يبساً لا تخاف دركا ﴾ .

أى من فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ أى لا تخشى من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى : ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ ، أى من البحر ما غشيهم . كما قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى ﴾[(٣)] . ففى التعبير بالاسم

(١) الآيات ٥٤ ، ٥٥ من سورة الشعراء . (٢) الآيات ٦١ ، ٦٢ منو سورة الشعراء . (٣) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

الموصول فى قوله تعالى ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ ما يفيد التضخيم والتهويل ، أى أن الذى غشيهم حدث عنه ولا حرج ، فقد كان الخطب جسيما والعذاب أليما ، جزاء ما قدمت أيديهم .

وهذا حكم الله العادل أن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، فالديان لا يموت ، أعمل ما شئت كما تدين تدان ، وهكذا حكم الله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(١) ، ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾(٢) .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع .

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، كذلك ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود * وأُتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾(٣) .

وتلك عاقبة الظالمين ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين ﴾(٤) .

حديث عن بنى إسرائيل

قال تعالى :

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي
وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ
ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ * وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ
إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ
إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ
أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ
بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٤٢ من سورة ابراهيم .
(٣) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة هود .
(٤) الآيات ٣٥ ـ ٤٠ من سورة الصافات .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ
عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا
لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ
ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

المفـردات :

﴿ **الأيمن** ﴾ : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام .
﴿ **المنّ** ﴾ : نوع من الحلوى .
﴿ **السلوى** ﴾ : طائر شبيه بالسُّمانى .
﴿ **ولا تطغوا فيه** ﴾ : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه .
﴿ **فيحل عليكم غضبى** ﴾ : أى ينزل بكم .
﴿ **هـوى** ﴾ : سقط وهلك .
﴿ **غفَّـار** ﴾ : كثير المغفرة والستر للذنوب .
﴿ **اهتـدى** ﴾ : أى لزم الهداية واستقام .
﴿ **يقال جاء على أثره** (بفتحتين وبكسر فسكون) ﴾ : إذا جاء لاحقا به بلا تأخير .
﴿ **فتنا قومك** ﴾ : أى اختبرناهم .
﴿ **وأضلهم** ﴾ : أى أوقعهم فى الضلال والخسران .

﴿ **السامرى** ﴾ : من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى .
﴿ **والأسف** ﴾ : الحزين .
﴿ **والوعد الحسن** ﴾ : إعطاء التوارة التى فيها هدى ونور .
﴿ **والعهد** ﴾ : زمان الإنجاز .
﴿ **موعدى** ﴾ : أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف .
﴿ **بملكنا** ﴾ : أى بقدرتنا واختيارنا .
﴿ **والأوزار** ﴾ : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط .
﴿ **فقذفناها** ﴾ : أى طرحناها فى النار .
﴿ **جسدا** ﴾ : أى جثة لا روح فيها .
﴿ **والخوار** ﴾ : صوت العجل .
﴿ **فنسى** ﴾ : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .
﴿ **أن لا يرجع إليهم قولاً** ﴾ : أى لا يردّ عليهم جوابا .
﴿ **ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا** ﴾ : أى لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً .
﴿ **فتنتم به** ﴾ : أى وقعتم فى الفتنة والضلال .
﴿ **فاتبعونى** ﴾ : أى فى الثبات على الحق .
﴿ **لن نبرح** ﴾ : أى لا نزال .
﴿ **عاكفين** ﴾ : أى مقيمين .
﴿ **بلحيتى ولا برأسى** ﴾ : أى بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .
﴿ **خشيت** ﴾ : أى خفت .
﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ : أى ولم تراع .
﴿ **فما خطبك** ﴾ : أى ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذى صدر منك .
﴿ **بصُرت بما لم يبصُروا به** ﴾ : أى علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر الشىء إذا علمه ، وأبصره : إذا نظر إليه .
﴿ **الرسول** ﴾ : موسى .
﴿ **فنبذتها** ﴾ : أى طرحتها .
﴿ **سولت لى نفسى** ﴾ : أى زينت وجنت .
﴿ **لا مساس** ﴾ : أى لا مخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحداً ، فعاش وحيداً طريداً .
﴿ **لن تخلفه** ﴾ : أى سيأتيك به الله حتما .
﴿ **ظلت** ﴾ : (أصله ظللت دخله حذف) : أى أقمت .
﴿ **لنحرقنه** ﴾ : أى لنبردنّه بالمبرد .
﴿ **لننسفنه** ﴾ : أى لنذرينه .
﴿ **فى اليم** ﴾ : أى فى البحر .

﴿وسع كل شىء علماً﴾ : (أى وسع علمه) كل شىء وأحاط به .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما ذكر سبحانه ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر ، حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور ، عدّد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان ينزل بهم ضروبا من الظلم : من قتل وإذلال ، وتعب فى الأعمال ، وأنه أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم ، وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلوى ، وأنه أمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

وأعقب هذا بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام حين موافاته الميقات ، بحسب المواعدة التى ذكرت آنفا وبما حدث من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، ورجوع موسى إليهم غضبان آسفا ، ثم معاقبته لهم على ما صنعوا ، ثم ذكر الحيلة التى فعلها السامرى حين أخرج لهم من حليهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووبخهم بأن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوه ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا فى دينهم ولا دنياهم .

وبعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لا يستجيب لهم دعاء ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا ، أكد هذا وزاد عليهم فى التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذى نبههم إلى خطأ ما فعلوا .

ثم حكى معاتبة موسى لهارون على سكوته على بنى إسرائيل ، وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذر له ، ولكنه لم يقبل معذرته ، ثم قص علينا ما قاله السامرى ، وما أنّبه به موسى ، وما عاقبه الله به فى الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نسفه وإلقائه فى البحر .

ثم بين لهم أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لا ذاك الجماد الذى لا يضر ولا ينفع ، ولا يرد جوابا ، ولا يسمع خطابا .

قوله تعالى :

﴿ يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما قال : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾[1] .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة البقرة .

﴿ **وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ : فكلمناك تكليما وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل كل شيء .

﴿ **ونزلنا عليكم المن والسلوى** ﴾ : فكان ينزل عليكم المن وأنتم فى التيه ، مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم ما يكفيه .

﴿ **كلوا من طيبات مارزقناكم** ﴾ : أى وقلنا لكم ، كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

﴿ **ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى** ﴾ : أى ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره ، وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ، ومنع الحقوق الواجبة فيه فينزل عليكم غضبى ، وتجب عليكم عقوبتى .

﴿ **ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى** ﴾ : أى ومن ينزل به غضبى فقد شَقِىَ وهلك .

﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ : أى وإنى لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقلع من ذنبه ، ويُخلِص لى فى العمل ، ويؤدى فرائضى ويجتنب المعاصى ، ويستقيم حتى الموت .

وقوله تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى** ﴾ : المراد بالقوم هنا النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أىّ شيء عجّل بك عن قومك ، وجعلك تتقدمهم ؟ .

والمراد الإنكار عليه فى تقدمه عليهم ، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم ، مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة فى ذاتها وأيضاً ، ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

﴿ **قال هم أولاء على أثرى** ﴾ : أى قال موسى مجيبا ربه : هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة ، يتقدم بها بعض المرفقة على بعض .

﴿ **وعجلت إليك رب لترضى** ﴾ : أى وعجلت إليك رب لتزداد عنى رضا بالمسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرته ـ إنى اجتهدت أن أتقدم قومى بخطا يسيرة ، ظنا منى أن مثل ذلك لا ينكر ، فأخطأت فى اجتهادى ، وقد حملنى على ذلك طلب الزيادة فى مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارعة إلى الميعاد ، والموعود بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

﴿ **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك** ﴾ : أى قال : إنا قد اختبرنا قومك الذين خلفتهم مع هارون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى : صّيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من

بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى بعشرين يوما .

﴿ **وأضلهم السامرى** ﴾ : أى دعاهم إلى الضلال بإتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر ، فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا** ﴾ : أى فانصرف إلى قومه بنى إسرائيل بعد انقضاء الليالى الأربعين ـ مغتاظا من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله .

روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل ، فقال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة .

قال القرطبى : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ، ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله ﷺ ، ثم إنهم يضربون بالقضيب على شىء من الطبل . ويقوم بعضهم يرقص . ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟

فأجاب : يرحمك الله ، فذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى . لما أتخذ لهم عجلا جسداً له خوار . فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعُبّاد العجل ؛ وأما الطبل فأول من أتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه ، كأنما على رءوسهم الطير من الوقار ، فينبغى للسلطان أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم ، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين .

﴿ **قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا** ﴾ : لا سبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة بقوله : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾(١) ، ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .

﴿ **أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى** ﴾ : أى أفطال عليكم الزمان ، فنسيتم وعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل ما يكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك ـ أفطال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟

﴿ **قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا** ﴾ : أى قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأنا لم نملك أمرنا ، فلو خُلِّينا وأنفسنا ولم يسوّل لنا السامرى ما سوّله ، لما أخلفنا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب ،

---

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .

ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة وقصارى كلامهم : إن السامرى سول لنا ما سول ، وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك .

قوله تعالى : ﴿ **ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها** ﴾ : أى ولكن غلبنا موسى السامرى إذ حمّلنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حُبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونملأها ناراً وأن نقذف الحلى فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أى آثاما ، لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم .

﴿ **فكذلك ألقى السامرى** ﴾ : أى فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقى السامرى ما كان معه منها .

﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار** ﴾ : أى فأخرج لهم من تلك الأثقال التى قذفوها جسد عجل من ذهب لا روح فيه ، وله خوار كخواره إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيها أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله فى اتجاهه .

﴿ **فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى** ﴾ : أى فقال السامرى ومن افتتن به أول ما رآه : هذا هو إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .

فرد عليهم سبحانه ، مقبحًا أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

﴿ **أفلا يرون أَلا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ : أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لا يرجع إليهم كلاما ، ولا يرد عليهم جوابا ، وأنه لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً ، ولا يجلب لهم نفعاً ؟ .

وقصارى ما يقول - إنه عاجز عن الخطاب ، وعن النفع والضر ، فكيف تتخذونه إلها ؟

﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به** ﴾ : أى ولقد قال هارون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحا لهم من قبل رجوع موسى إليهم : يا قوم إنما أختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاكّ فى دينه .

﴿ **وإن ربكم الرحمن** ﴾ : أى وإن خالقكم وخالق كل شىء هو الذى عمت رحمته جميع المخلوقات ، فآتاهم ما فيه كمالهم الجسمى والروحى وما به سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

﴿ **فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ : أى فاتبعونى فيما آمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ، ولم يطيعوا أمره .

﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ : أى قال عبدة العجل من قوم موسى لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول ، وماذا يرى فى ذلك ؟ وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويف وعدم إجابة طلب هارون .

ثم ذكر فقال موسى لهارون بعد أن فرغ من خطاب قومه وبيان خطأ فعلهم : ﴿ **قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن** ﴾ :

أى قال موسى لهارون : أىّ شيء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هارون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما فى ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبغوض لديهم بما تشق على النفوس ، وتقتضى ترك ذلك الأمر الذى يكرهه .

﴿ **أفعصيت أمرى** ﴾ : فيما تقدمت إليك من قولى : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾(١) .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبة إلى عصيانه ومخالفته أمره ، فترفق هارون فى خطاب موسى استعطافا له ، وترقيقا لقلبه . إذ أضافه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

﴿ **قال يا ابن أُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى** ﴾ : أى فامتلأ موسى غضبا مما رأى وألقى ما فى يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يا بن أمى لا تأخذ بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .

وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ، وكان عليه السلام حديداً غضوباً لله تعالى ، وقد شاهد ما شاهد ، وغلب على ظنه تقصير هارون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديداً مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شيء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون العجل بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوارة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ، غضباً لله واستنكافا وحمِّية ، وعنّف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه (وكان أقرع) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهى بأنى لست عاصيا أمرك ولا مقصرا فى المصلحة ، بل :

﴿ **إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى** ﴾ : أى إنى خشيت لو قاتلت

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

بعضهم ببعض لتفرقوا ، فتريثت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ، المتلافيه برأيك ، وخشيت عتابك على إطراح ما وصيني به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجبه . وخلاصة ذلك - إنى رأيت من صواب الرأى أن أحفظ العامة وأدار بهم على وجه لا يختل به نظامهم ، ولا يكون سببا للومك حتى ترجع فتتدارك الأمر بحسب ما ترى ولا سيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى .

وبعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه وإسنادهم الفساد إلى السامرى ، ومن سماع اعتذار هارون - وجه الكلام إلى السامرى :

﴿ **قال فما خطبك يا سامرى** ﴾ : أى قال موسى للسامرى : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليُظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

﴿ **قال بصرت بما لم يبصروا به** ﴾ : أى قال السامرى : إنى عرفت ما لم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها** ﴾ : أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئا من سنتك ودينك فطرحته ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يتمثل رسمه ، ويتبع طريقته .

وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا وبماذا يأمر الأمير ؟ قال أبو مسلم الأصفهانى ، وأيده الرازى وقال أنه أقرب إلى التحقيق .

قال المراغى فى تفسيره وخلاصته ذلك : إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم - رد عليه بأنه كان استن بسنته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شىء ، فطرحه وراءه ظهريا وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة « الرسول » على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد مكذب له ، فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾[1] .

وهم لا يؤمنون بالإنزال عليه .

﴿ **وكذلك سولت لى نفسى** ﴾ : أى كما زينت لى نفسى أولاً إتباع سنتك وإقتفاء أثرك ، زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا لشىء آخر ، من برهان عقلى أو نقلى أو إلهام إلهى .

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية ما نصه : ﴿ **قال بصرت بما لم يبصروا به** ﴾ : أى رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون : ﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾ : أى من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم .

(١) الآية ٦ من سورة الحجر .

وقال مجاهد : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ : قال : من تحت حافر فرس جبريل ، قال : والقبضة ملء الكف ، والقبضة بأطراف الأصابع ، وقال : نبذ السامرى أى ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار . حفيف الريح فيه . فهو خواره .

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع . بين له ما سينزل به من الجزاء فى الدنيا والآخرة وذكر له حال الحق ، أما عزاؤه هو فى الدنيا فما حكاه سبحانه عنه .

﴿ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ : أى قال له : اذهب فأنت طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحدا ، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس : أى لا يماسّنى أحد ، ولا أماسّ أحداً .

قال مقاتل : إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريداً فى البرارى .

وروى أنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم فى البريّة مع السباع والوحش ، ولا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه .

وقصارى ذلك : إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى الصحارى والقفار حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك .

وأما جزاؤه فى الآخرة فقد ذكره بقوله تعالى : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ : أى وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفه الله ، بل سينجزه لك البتة ، بعد أن يعاقبك فى الدنيا وهو آت لا محيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله تعالى : :

﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ﴾ : أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردنّه بالمبرد ثم لنندرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعده به كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ ولم يصرح بهذا تنبيها إلى وضوحه واستمالة الخُلْف فى وعيده المؤكد باليمين .

وفى فعله ذلك به عقوبة للسامرى ، وإظهار لغباوة المفتونين به لمن له أدنى نظر .

وبعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً ﴾ :

يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلاهكم ، إنما إلهاكم الله الذى لا إله إلا هو ، أى لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فإن كل شىء فقير إليه ، عبد له .

وقوله : ﴿ وسع كل شىء علماً ﴾ : يقول لهم موسى عليه السلام : إن إلهكم هذا متصف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص ، فمن صفاته العلم المحيط بكل شىء ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ﴾[(١)] ، ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[(٢)] .

وهكذا بدأ الحديث مع موسى بكلمة التوحيد ﴿ فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾[(٣)] .

وأنهى الحديث فى هذه السورة عن موسى بكلمة التوحيد : ﴿ **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً** ﴾ ، لأنه أرسل إلى جبار عنيد ﴿ حشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[(٤)] ، ﴿ وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[(٥)] .

فأراد ربك أن يظهر الجلال والعظمة : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[(٦)] .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)[(٧)] .

وهذه كلمة التوحيد : عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله .

لا إلـه إلا الله أخلو بهـا وحـدى   لا إلـه إلا الله يغفـر بـه ذنبى
لا إلــه إلا الله ألقى بـهـا ربى   لا إلـه إلا الله أفنى بهـا عمـرى
لا إلـه إلا الله أدخـل بهـا قـبرى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أوّلَ منك لما رأيت من

(١) الآية ٧ من سورة غافر .
(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٣) الآيات ١١ - ١٤ من سورة طه .
(٤) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٦) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الحشر .
(٧) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٤٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ .

حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)[١] . رواه البخارى .

أى نطق بالشهادتين معتقدا صحتهما ، متبعا أوامر الله تعالى ، مجتنبا نواهيه ، عاملاً بشرعه مستقيماً .

وعن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ـ زاد حُبادةُ ـ من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء)[٢] . رواه البخارى واللفظ له ومسلم .

وفى رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، حَرَّم الله عليه النار)[٣] . (أى أبعد عنه العقاب) .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، ومعاذ رديفُهُ على الرَّحل قال : (يا معاذ بن جبل ؟ قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً . قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرَّمه الله على النار . قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً)[٤] . رواه البخارى ومسلم .

« تأثماً : أى تحرجا من الإثم ، وخوفاً منه أن يلحقه إن كتمه » .

وروى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال : لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

« معنى تحجره أى تمنعه وتبعده عن إرتكاب المعاصى وغشيان الفجور » .

وعن رفاعة الجهنى رضى الله عنه قال : (أقبلنا مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا كنا بالكديد ، أو بقديد نحمد الله ، وقال خيراً وقال أشهدُ عند الله لا يموت عبدٌ يشهد أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله صدقا من قلبه ، ثم يُسَدِّدُ إلا سلك فى الجنة)[٥] . رواه أحمد بإسناد لا بأس به ، وهو قطعة من حديث « والكديد : التراب الناعم ، ومعنى يسدد أى يتحرى السداد ، ويقصد العمل بالكتاب والسنة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما قال عبدٌ : لا إله إلا الله قط

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ ، وفى التوحيد : ٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، وفى الأنبياء : ٤٧ ، ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، وفى المسافرين : ٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٤٧ ، والترمذى فى الإيمان : ١٧ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦ .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٥٣ ، والبخارى فى العلم : ٤٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٦ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٤ .

مخلصا : إلا فتحت له أبوابُ السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر)[١] . رواه الترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : (قال موسى ﷺ : يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به ؟ قال قل : لا إله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا ؟ قال قل : لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به ؟ قال يا موسى : لو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله)[٢] . رواه النسائى والحاكم .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أفضلُ الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله)[٣] . رواه ابن ماجه وابن حبان والنسائى .

وعن يَعلَى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعبادة بن الصامتُ حاضرٌ يُصدِّقُه قال : (كنا عند النبى ﷺ فقال : هل فيكم غريب ، يعنى أهل الكتاب ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : أرفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم قال : الحمد لله ، اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتنى عليها الجنة ، وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم)[٤] . رواه أحمد بإسناد حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جَدِّدُوا إيمانكم . قيل يا رسول الله : وكيف نُجدِّدُ إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)[٥] . رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد حسن .

وعن عبد الله رضى الله عنه : من جاء بالحسنة ؟ قال : من جاء بلا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة ؟ قال : من جاء بالشرك . رواه الحاكم موقوفاً .

وعن عمرو رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه فيموت على ذلك إلا حُرِّم على النار : لا إله إلا الله) . رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يُحال بينكم وبينها) . رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله)[٦] . رواه أحمد والبزار .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من عبد قال : لا إله إلا الله فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٢٦ .
(٢) أخرجه النسائى فى السهو : ٥٨ ، وفى قيام الليل : ٩ .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٤٠٢ ، ٤١١ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى : ٢ : ٣٥٩ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٤٢ .

ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى الصحيفة من السيئات ، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات) رواه أبو يعلى . « ومعنى طمست : محت ، حتى تسكن : تدبج وتنقش الثواب بكثرة ذكر الله تعالى » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ، وكأنى انظر إلى أهل لا إله إلا الله ، وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) . وفى رواية : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا عند القبر) . رواه الطبرانى والبيهقى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بوصية نوح ابنه ؟ قالوا بلى . قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يا بُنى إنى أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت فى كفة ، ووضعت السموات والأرض فى كفة لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى تخلص إلى الله) فذكر الحديث . رواه البزاز .

ورواه الحاكم عن عبد الله وقال صحيح الإسناد ولفظه قال : (وآمركُما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض ، وما فيهما لو وضعت فى كفة ، ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض ، وما فيهما كانت حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شىء وبها يرزق كل شىء) .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلُص إليه) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مدَّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فقال : لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها ، أشهد إنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء)[1] . رواه الترمذى وابن حبان والحاكم .

(١) أخرجه الترمذى فى الإيمان : ١٧ .

عظات بالغات

قال تعالى :

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ
يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ
فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ
لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ
وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

المفـــردات :

﴿ ذكراً ﴾ : أي قرآناً .
﴿ والوزر ﴾ : الحمل الثقيل ، والمراد به العقوبة التي تثقل على حاملها .
﴿ والصور ﴾ : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر .
﴿ زُرقا ﴾ : أي زرق الأبدان سود الوجوه ، لما هم فيه من الشدائد والأهوال .

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها ، لشدة ما يرون من الهول .
﴿ إلا عشرا ﴾ : أى عشرة أيام .
﴿ أمثلهم طريقة ﴾ : أى أعدلهم رأيا ، وأرجحهم عقلاً .
﴿ ينسفها ﴾ : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا .
﴿ يذرها ﴾ : أى يتركها .
﴿ القاع ﴾ : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى .
﴿ والصفصف ﴾ : الأرض الملساء .
﴿ والعوج ﴾ : الانخفاض .
﴿ والأمت ﴾ : النتوء اليسير ، يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى هو داعى الله إلى المحشر لا عوج له ، أى لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت ذلك .
﴿ والهمس ﴾ : الصوت الخفى .
﴿ وعنت ﴾ : خضعت وانقادت ومن ذلك العانى وهو الأسير .
﴿ والقيوم ﴾ : القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت .
﴿ خاب ﴾ : أى خسر ، والظلم الأول الشرك .
﴿ والظلم الثانى ﴾ : منع الثواب عن المستحق .
﴿ والهضم ﴾ : النقص .
﴿ صرفنا ﴾ : كررنا وفصلنا .
﴿ ذكرا ﴾ : أى عظة وعبرة .
﴿ فتعالى الله ﴾ : أى تنزه وتقدس .
﴿ الحق ﴾ : أى الثابت فى ذاته وصفاته .
﴿ يقضى إليك وحيه ﴾ : أى يتم جبريل تبليغه لك .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولاً ، ثم مع السامرى ثانياً ، على نمط بديع ، وأسلوب قويم ، بيّن لنبيه ﷺ أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية ، والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلية لقلبك ، وإذهابا لحزنك ، إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد وأهوال ، وتذكيرا للمستبصرين فى دينهم ، وتأكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

ثم حكى سبحانه حال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال التى تجعل المجرمين يتخافتون فى حديثهم ، وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف .

فقفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر . عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه وضم إلى الجواب أمورا أخر تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله ، فبيّن أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ، ولا يسمع لهم إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولاً .

ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر ، وهم لا يحيطون به علما ، وفى ذلك اليوم تذل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه ، فأشرك مع الله غيره ، وعبد معه سواه ، وعصى أوامره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لا يُظلمون ، فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من صفاتهم . أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية ﴿ **ويسألونك عن الجبال** ﴾ .. الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له .

وبعد ذلك ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد ، المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأهوالها ، أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآنا عربياً ليفهمه العرب ، ويقفوا على ما فيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر .

ثم بين عزّ اسمه نفع هذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى .

روى أن النبى ﷺ كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام ، فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه ، مخافة النسيان ، فنُهى عن ذلك وقيل له : لا تعجل به إلى أن يستتم وحيه ، فيكون أخبرك إياه عن تثبيت وسكون ، وادع ربك أن يزيدك فهما وعلماً .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق** ﴾ : أى كما قصصنا عليك من نبإ موسى وقومه ، وما كان من شأنه مع فرعون ، فإننا نقص عليك من أنباء السابقين ، وما كان قد حدث من الأمم مع المرسلين .

﴿ **وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾ : أى أنزلنا من عندنا ذكرا عليك ، وهو القرآن العظيم ، ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾(١) .

فيا أيها النبى المصطفى ، والرسول المجتبى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٢) .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .
(٢) الآيات ١٢١ - ١٢٣ من سورة هود .

إن هذا الذكر الذى أنزلناه عليك ما تمسكت به أمة إلا كان السعد رائدها ، والنصر حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، وما تركته أمة إلا كان الذل حليفها ، والخسران المبين رائدها ، وألبسها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا** ﴾ : أى حملا ثقيلا من العذاب ﴿ **خالدين فيه** ﴾ أى ماكثين فيه ﴿ **وساء لهم يوم القيامة حملا** ﴾ .

وهى كلمة ذم ، أى بئس الحمل ما حملوه .

﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ .

قال ﷺ : (كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم . إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم)[1] . ثم تلا قوله تعالى :

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[2] .

فكيف نعرض عنه ، والجن لما استمعوا إليه قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[3] .

وقد صدق ربنا إذ يقول :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾[4] .

وقال سبحانه :

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾[5] .

فيا أمة القرآن : أقيموا دولة الإسلام فى بيوتكم بالقرآن ، تقم على أرضكم بالقرآن .

قال ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه)[6] رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وغيرهم .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٤٢ .
(٢) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجن .
(٤) الآية ٩ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٢٩ من سورة ص .
(٦) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٢١ ، وأبو داود فى الوتر : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدرامى فى فضائل القرآن : ٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ١٥٣ .

أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ، ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ آلم ﴾ حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)[١] . رواه الترمذى .

معناه أن الله تعالى يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة ، وفيه فضل قراءة القرآن ، وكثرة حسناته ، وزيادة أجره .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)[٢] . رواه ابن ماجه وأبو داود وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة)[٣] . رواه أحمد .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى :

(من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)[٤] . رواه الترمذى .

قال الإمام البوصيرى رضى الله عنه :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت ... ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ... وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم
محكمات فما تبقين من شبه ... لذى شقاق وما تبغين من حكم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب ... أعدى الأعادى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجانى عن الحرم

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٤ .
(٢) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٧ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٤١ .
(٤) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٦ .

لها معان كموج البحر فى مدد　　وفوق جوهره فى الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها　　ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له　　لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به　　من العصاة وقد جاءوه كالحمم

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح ، وطعمها مر)(١) .

وفى رواية : (مثل الفاجر) بدل المنافق . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)(٢) .

رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أوصنى ؟ قال : (عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله) . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : (عليك بتلاوة القرآن ، فإنه نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء) . رواه ابن حبان فى صحيحه فى حديث طويل .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (القرآن شافع مشفع ، ومَاحِلٌ مُصَدّق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار) . رواه ابن حبان فى صحيحه .

ومعنى (ماحل) أى ساع ، وقيل : خصم مجادل .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ القرآن وعمل به أُلْبِس والداه تاجا يوم القيامة ، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا)(٣) . رواه أبو داود والحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (يجىءُ صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن : يارب حلِّه ، فيلبَسُ تاج الكرامة ، ثم يقول : يارب زده . فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول :

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ١٧ ، ٣٦ ، وفى الأطعمة : ٣٠ ، وفى التوحيد : ٥٧ ، ومسلم فى المسافرين : ٢٤٣ ، وأبو داود فى الأدب : ١٦ ، والترمذى فى الأدب : ٧٩ ، والنسائى فى الإيمان : ٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦٠ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٨ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٧ ، ٤١٤ ، ٤١٨ .

(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٤٤ ، وابن ماجه فى الأدب : ٥٢ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٩٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٦ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٤٤٠ .

يارب ارض عنه ، فيرضى عنه . فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة)[١] . رواه الترمذى وحسنه وابن خزيمة والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله هذا الكتاب فقام به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل أعطاه الله مالا فتصدق به آناء الليل وآناء النهار)[٢] رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأمّ به قوما وهم به راضون ، وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله ، وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين مواليه) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ، يعنى ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال : ما معك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة . فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم . فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها .

فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقرءوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك)[٣] . رواه الترمذى . ومعنى « أوكىء » أى عُقد وشُد .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه ، لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل ، وفى جوفه كلام الله) رواه الحاكم . وقال : صحيح الإسناد .

ومعنى « يجد » أى يغضب ويشتم ويذم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد ، يقول الصيام : رب إنى منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان)[٤] . رواه أحمد ، وابن أبى الدنيا .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنكم لا ترجعون إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه ـ يعنى القرآن) . رواه الحاكم ، وصححه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٨ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ١٥ ، وفى الزكاة : ٥ ، وفى الأحكام : ٣ ، وفى التمنى : ٥ ، وفى الاعتصام : ١٣ ، وفى التوحيد : ٤٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩ ، ٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ١٧٤ .

وعن عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول (الٓم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) . رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله أهلين من الناس قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)(١) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم .

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة ، وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار)(٢) . رواه ابن ماجة والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين) . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين) . رواه ابن خزيمه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه رأى رؤ يا أنه يكتب (صٓ) فلما بلغ إلى سجدتها . قال : رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا . قال : فقصصتها على النبى ﷺ فلم يزل يسجد بها)(٣) . رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى رأيت فى هذه الليلة فيما يرى النائم : كأنى أصلى خلف شجرة ، فرأيت كأنى قرأت سجدة ، فرأيت الشجرة كأنها تسجد لسجودى ، فسمعتها وهى ساجدة ، وهى تقول : اللهم أكتب لى بها عندك أجرا ، وأجعلها لى عندك ذخرا ، وضع عنى بها وزرا ، وأقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله ﷺ قرأ السجدة فسمعته وهو ساجد يقول : مثل ما قال الرجل عن كلام الشجرة)(٤) . رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : (أن النبى ﷺ كتبت عنده سورة النجم فلما بلغ السجدة سجد وسجدنا معه ، وسجدت الدواة والقلم) . رواه البزار بإسناد جيد .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القران : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٤٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٣ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٧٨ ، ٨٤ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٥٥ ، وفى الدعوات : ٣٣ .

التحذير من نسيان القرآن

احذر يا أخى أن تنسى القرآن بعد حفظه ، فقد قال ﷺ :

(عرضت على أجور أمتى حتى القذاةُ يخرجها الرجل من المسجد ، وعرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها)[١]. رواه أبو داود ، والترمذى .

وقال ﷺ : (إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب)[٢] . رواه الترمذى والحاكم .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (إن أصغر البيوت بيت ليس فيه شىء من كتاب الله) . رواه الحاكم .

دعاء يُدعى به لحفظ القرآن

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : (بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : بأبى أنت تفلّت هذا القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه . فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع بهن من علمته ، ويثبت ما تعلمت فى صدرك ؟ قال : أجل يا رسول الله فعلمنى . قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، فقد قال أخى يعقوب لبنيه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، فإن لم تستطع فقم فى وسطها ، فإن لم تستطع فقم فى أولها ، فصل أربع ركعات تقرأ فى الركعة الأولى : بفاتحة الكتاب ، وسورة يس ، وفى الركعة الثانية : بفاتحة الكتاب وحم « الدخان » ، وفى الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب وآلم تنزيل السجدة ، وفى الركعة الرابعة : بفاتحة الكتاب و « تبارك » المفصل ، فإذا فرغت من التشهد فأحمد الله . وأحسن الثناء على الله ، وصل علىَّ وأحسن وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ، ثم قل فى آخر ذلك :

اللهم أرحمنى بترك المعاصى أبدًا ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ، ونور وجهك ، أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه ، على النحو الذى يرضيك ، اللهم بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، أسألك يا ألله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تطلق به لسانى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تستعمل به بدنى ، فإنه لا يعيننى على الحق

---

(١) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ١٦ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٨ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٣ .

غيرك ، ولا يؤتينيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . يا أبا الحسن : تفعل ثلاث جمع ، أوخمسا ، أوسبعا ، تجاب بإذن الله والذى بعثنى بالحق ما اخطأ مؤمنا قط) .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما : (فوالله ما لبث على إلا خمسا أو سبعا حتى جاء رسول الله ﷺ فى مثل ذلك المجلس ، فقال يا رسول الله : إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات ونحوهن ، فإذا قرأتهن على نفسى تفلتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها فإذا قرأتهن على نفسى فكأنما كتاب الله بين عينى ، ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أحرم منها حرفا . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن)(١) . رواه الترمذى .

وقد رغّب الرسول ﷺ فى تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ، فقال : (إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفسُ محمد بيده لهوأشد تفلتا من الإبل فى عقلها) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ما أذن الله لشىء كما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)(١) .

رواه البخارى ومسلم .

وعن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (زينوا القرآن بأصواتكم)(٢) رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه .

وقال ﷺ : (إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله)(٣) . رواه ابن ماجه .

فقه الباب

أولا : الذى يداوم على قراءة القرآن يذلل الله له لسانه ، ويسهل عليه قراءته ، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة ، وشقت عليه .

ثانيا : شبه ﷺ درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذى يخشى منه الشراد ، فما زال التعاهد موجودًا فالحفظ موجود ، كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ ، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الإنسى نفورا .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١١٤ .

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٥٢ ، وأبو داود فى الوتر : ٢٠ ، والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ ، وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٣٤ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٣٤ .

ثالثا : الاجتهاد فى ترتيل القرآن ، وإتقان قراءته ، وإظهار حروفه .

رابعا : إغداق الله تعالى القارىء بحسناته ورضوانه .

خامسا : أن يخشى القارىء الله ، ويخاف عذابه ، ويعمل به ، ويتحلى بمكارم الأخلاق .

قوله تعالى :

﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾ :

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : (قرن ينفخ فيه) .

وقد جاء فى حديث الصور من رواية أبى هريرة (أنه قرن عظيم ، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض ، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام) .

وجاء فى الحديث : (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له . فقالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا)(١) .

وقوله : **﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾** : قيل معناه : زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ : قال ابن عباس : يتسارّون بينهم ، أى يقول بعضهم لبعض **﴿ إن لبثتم إلا عشرا ﴾** أى فى الدار الدنيا ، لقد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام ، أو نحوها .

قال الله تعالى : **﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾** : أى فى حال تناجيهم بينهم .

﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ : أى العاقل الكامل فيهم .

﴿ إن لبثتم إلا يوما ﴾ : أى لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها ، كأنها يوم واحد ، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة .

وكان غرضهم فى ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ، ولهذا قال تعالى : **﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾** إلى قوله : **﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾**(٢) .

وقال تعالى : **﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾**(٣) الآية .

وقال تعالى : **﴿ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾**(٤) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٩ : ٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٢٦ ، وفى ٣ : ٧ ، وفى ٤ : ٣٧٤ .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الروم . (٣) الآية ٣٧ من سورة فاطر . (٤) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

أى إنما كان لبثكم فيها قليلا ، لو كنتم تعلمون لأثرتم الباقى على الفانى ، ولكنكم تصرفتم فأسأتم التصرف ، قدمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقى .

قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا * يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ :

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ، فنزلت الآية **﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾** . . . الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له . . وهكذا جاء الجواب عن حال الجبال يوم القيامة إنها تدك دكا .

قال تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾(١) .

وقال : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾(٢) .

وقال : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾(٣) .

وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرَّ السحاب ﴾(٤) .

فسبحان من يقول للشىء كن فيكون .

فإذا كان ما ذكره الله تعالى هو حال الجبال الشم ، والرواسى الشامخات ، فعلى كل من تسرب الغرور إلى نفسه من البشر فظلم العباد ، وقهر خلق الله ، عليه أن يعلم إذا غرته قوته ، أن ينظر إلى قوة العزيز الجبار من فوق .

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾(٥) .

ثم ما حال الجبال بعد أن تُنسف ؟ يتركها الله تعالى قاعا صفصفا ، أى أرضا مستوية جرداء ، لا نبات فيها ولا ماء ، لا ترى فيه عوجا ولا أمتا ، أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .

وخلاصة هذا : لا ترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ، ولا مكانا مرتفعا ، ولا منخفضا .

ويوم تقع هذه الأهوال التى قال الله تعالى فيها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٦) .

---

(١) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ١٤ من سورة المزمل .

(٣) الآية ٣ من سورة التكوير .

(٤) الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٥) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .

(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .

وقال فيها سبحانه : ﴿ إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجًّا * وبست الجبال بسًّا * فكانت هباء منبثا ﴾(١) .

يوم يكون ذلك كذلك ﴿ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ أى داعى الله إلى المحشر .

قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً . ذلك حشر علينا يسير ﴾(٣) .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ يوم يدعو الداع إلى شىء نكر * خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾(٤) .

قال محمد ابن كعب القرظى : يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ، ويطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ أى يوم يرى الناس هذه الأهوال يتبعون صوت داعى الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا إنحراف ، ولكنهم سراعا إليه يقبلون ، إذا أمروا بشىء قالوا : لبَّيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك ، كما قال : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾(٥) .

وقال قتادة ﴿ لا عوج له ﴾ لا يميلون عنه .

قوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ .

أى وعلمت الخلائق أن لا مالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لا يكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه ، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، ويضعف صوته ، ويختلط قوله ، ويطول غمه ، (قاله أبو مسلم) .

قال تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه . فمنهم شقى وسعيد ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما * وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما * ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ :

---

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة الواقعة .
(٢) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة مريم .
(٣) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة ق .
(٤) الآيات ٦ - ٨ من سورة القمر .
(٥) الآية ٣٨ من سورة مريم .
(٦) الآية ١٠٥ من سورة هود .

أى يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ، ورضى له قولا صدر منه .

ومعنى الآية قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾(١) وقوله جلَّ شأنه : ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾(٣) وقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾(٤) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : (آتى تحت العرش وأخر لله ساجدا ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن فيدعنى ما شاء أن يدعنى ثم يقول : يا محمد أرفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود)(٥) . فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

وفى الحديث أيضا : (يقول تعالى أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال حبة من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال من إيمان)(٦) .

والخلاصة : إن الشفاعة لا تكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

١ - إذن الله للشافع بالشفاعة .

٢ - رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعة الشافع له .

وقصارى ذلك : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يُرضى .

قوله تعالى : **﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾** : أى يعلم ما بين أيدى عباده من شئون الدنيا ، وما خلفهم من أمور الآخرة ، وهم لا يعلمون جملة ذلك ولا تفصيله .

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها فقال سبحانه عز وجل :

﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ : أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٣٨ من سورة النبأ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣ ، وفى تفسير سورة ٢ : ١ ، وتفسير سورة ١٧ : ٥ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، والترمذى فى الوتر : ١٩ ، والنسائى فى التطبيق : ١٥ ، ١٦ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٥ .

(٦) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، ٣٦ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٩٨٥ ، ٣٠٢ ، والترمذى فى البر : ٦١ ، والنسائى فى الإيمان : ١٨ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٦ ، ٤١٦ ، وفى ٢ : ١٦٦ ، وفى ٣ : ٩٤ ، وفى ٥ : ٤٣ .

وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل والغبطة والسرور تظهر عليها .

﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ : أى وقد حُرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله ، كافر بأنبيائه ، أو تارك لأمره ، منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر سبحانه أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :

﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾ : أى ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته ، وهو مؤمن بربه ورسله ، وما أنزله عليهم من كتبه فلا يخاف من الله ظلما بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[1] .

وخلاصة ذلك ـ إنه لا يؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا تبطل له حسنة قد عملها .

وقوله تعالى :

﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا * فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما** ﴾ .

﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا** ﴾ : أى وكما أنزلنا ما ذكر من الوعد والوعيد وأحوال يوم القيامة وأهوالها ، أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين ، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم ، ويتفقهوا بدراسته ، ويسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

﴿ **وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** ﴾ : أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد ، كى يجتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام ، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات .

وبعد أن عظم الله سبحانه كتابه أردفه بتعظيم نفسه سبحانه فقال جل فى علاه :

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ : أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى ، الحقيق بأن يُرجى وعْده ، ويُخشى وعيده ، وهو الثابت الذى لا يزول ولا يتغير من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤديا إلى الغاية التى أنزلها لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات .

ولا يخفى ما فى هذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلهية ، فيها صلاح الدارين ، لا يحيد عنها إلا من خذله الله ، وأن ما تضمنه من الوعد والوعيد حق كله ، لا يحوم الباطل حول حماه ، وأن الحق من أقبل عليه بشرا شره ، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره .

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ : أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يُتِمَّ جبريل تبليغه لك ، وقد كان ﷺ إذا ألقى عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفا أن يصدر عليه الصلاة والسلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك ، إذ ربما يشغله التلفظ بالكلمة عن سماع ما بعدها : وفى هذا أنزل قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنا علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾[1] .

وخلاصة ذلك : أنصت حين نزول الوحى بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، اقرأه بعده .

﴿ وقل رب زدنى علماً ﴾ : أى سل الله زيادة فى العلم دون استعجال بتلاوة الوحى ، فإن ما أوحى إليك لا يبقى محالة .

روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار)[2] .

وكان ابن سعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدنى إيمانا وفقهاً ، ويقيناً وعلماً .

قصة آدم وتوجيهات ربانية

قال تعالى :

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ
ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا

(١) الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة القيامة .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٩٩ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ .

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ
مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا
﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ
تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ
نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ
مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

المفـردات :

﴿ **العهـد** ﴾ : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا : إذا أمره وأوصاه به .

﴿ **من قبل** ﴾ : أى من قبل وجود هؤلاء المخالفين .

﴿ **فنسى** ﴾ : أى فترك .

﴿ **لم نجد له عزماً** ﴾ : العزم على الشىء تصميم الرأى والثبات عليه .

﴿ **أبى** ﴾ : امتنـع .

﴿ **فتشقى** ﴾ : أى تتعب بمتاعب الدنيا وهى لا تكاد تحصى .

﴿ تظمأ ﴾ : تعطش .
﴿ لا تضحى ﴾ : أى لا تصيبك الشمس بحرها اللافح .
﴿ شجرة الخلد ﴾ : أى الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خَلَد ولم يمت .
﴿ لا يبلى ﴾ : أى لا يفنى .
﴿ طفقا يخصفان ﴾ : أى شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها .
﴿ غوى ﴾ : أى ضل عن الرشد حيث اغتَّر بقول عدوه .
﴿ اجتباه ﴾ : اصطفاه وقربه إليه .
﴿ وهدى ﴾ : أى إلى الثبات على التوبة .
﴿ عن ذكرى ﴾ : أى عن الهداية بكتبى السماوية .
﴿ والضنك ﴾ : الضيق الشديد .
﴿ أعمى ﴾ : أى عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية .
﴿ عن آياتنا ﴾ : أى عن أدلتنا .
﴿ فنسيتها ﴾ : أى فتركتها .
﴿ وتنسى ﴾ : أى تترك .
﴿ أسرف ﴾ : أى انهمك فى الشهوات واسترسل فيها .
﴿ أفلم يهد لهم ﴾ : أى أفلم يبين لهم العِبَر .
﴿ لأولى النهى ﴾ : أى لذوى العقول الراجحة .
﴿ لزاماً ﴾ : أى لازما لهم لا يتأخر عنهم .
﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ : أى اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه .
﴿ آناء الليل ﴾ : ساعاته واحدها إنى وإنْو (بكسر الهمزة وسكون النون) .
﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ : أى لا تطيل النظر رغبة واستحساناً .
﴿ متعنا ﴾ : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من المناظر الحسنة ويسمعون من الأصوات المطربة ، ويشُمُّون من الروائح الطيبة .
﴿ أزواجاً ﴾ : أى أشكالاً وأشباها .
﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ : أى زينتها وبهجتها .
﴿ لنفتنهم ﴾ : أى لنبتليهم ونختبرهم .
﴿ ورزق ربك ﴾ : أى ما ادَّخره لك .
﴿ واصطبر عليها ﴾ : أى دم عليها .
﴿ لولا ﴾ : أى هلا ؛ وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها .
﴿ آية ﴾ : أى معجزة تدل على صدقه .
﴿ البينة ﴾ : القرآن .

﴿ والصحف الأولى ﴾ : التوارة والإنجيل وسائر الكتب السماوية .
﴿ نذل ﴾ : أى نهان .
﴿ ونخزى ﴾ : أى نفتضح .
﴿ متربص ﴾ : أى منتظر .
﴿ الصراط ﴾ : الطريق .
﴿ والسوى ﴾ : أى المستقيم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صَّدق الوعيد فى القرآن وكرره ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكر ، قضى على هذا ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه ، كما لم يلتفت أبوهم آدم إلى الوعيد ونسى العهد ، فمخالفتهم قديمة ، وعرقهم فيها راسخ .

ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم .

ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة ، إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هذا قد أطاع وساوسه وقبل إرشاده ، فأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، فأخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدوٌّ له ولذريته .

ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش فى الدنيا قرير العين هادىء البال ، ومن أعرض عن ذلك عاش فى الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثمَّ يغلب عليه الشح والبخل ، ويفعل كل منكر فى سبيل جمع المال من أى وجه كان ، ولا يبالى أمن الحلال كان أم من حرام ؟ ولذلك تراهم يقولون : « الغاية تبرر الوسيلة » .

أما المؤمن جمع حطام الدنيا فإنه فى سرور وراحة قلَّ ماله أو كثر ، والكافر فى الآخرة أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزى الدائم والعذاب المقيم ، وسبب ذلك هو إعراضه فى الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير فى جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المسرفين المكذبين بآياته فى الدنيا والآخرة جزاء وفاقاً لما اجترحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام .

كما قال سبحانه : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واقٍ ﴾(١) .

ثم أتبع ذلك بما يكون عبرة للمشركين لو تفكروا فيه ، وهو ما نزل بالمكذبين بالرسل ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خراباً بلقعا ليس فيها ديَّار ولا نافخ نار .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الرعد .

ثم بين أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى لحاق بهم مثل ما حاق بمن قبلهم .

ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ، وإنه شاعر ، وإنه مجنون ، وعدم المبالاة بمقالتهم ، وعليه أن يكثر من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار . ولا يلتفت إلى شيء مما مُتعٍّ به الكفار من زهرة الدنيا التى أوتيت لهم لتكون ابتلاء واختبارا ، وما عند الله خير منها وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ، ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله ، وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[1] .

وبعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقاويلهم التى أرادوا بها تكذيبه وكيده له وشديد أذاه ، حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة ، ومنها إدعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ ، ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ، فلو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم ، كما حكى الله عنهم من قوله : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾[2] .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد وكأنه قال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى الثانى من ضروب الخزى والإهانة ، ويظهر من منّا سار على الطريق السوى ، ومن المهتدى ؟

قوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ .

أى اذكر يا محمد وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، ولقد أخذنا العهد على آدم فنسى .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إنما سمى الإنسان لأنه عُهد إليه فنسى .

وقال مجاهد والحسن : نسى أى ترك .

وقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم تشريفاً له وتنويها بشأنه ، فامتثلت الملائكة أمر الله تعالى ، لكن إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم فى سورة البقرة ، وفي الأعراف ، وفى الحجر والإسراء والكهف .

ولقد بينا عداوة إبليس لآدم وزوجه ، ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٩ من سورة الملك .

وذلك لأنك إذا خرجت من الجنة أنت وزوجك فسوف تعانى وتتعب سعياً وراء لقمة العيش ، فأنت الرجل المسئول عن النفقة على أهلك ، ولذلك جاء الخطاب بالتثنية فى قوله تعالى : ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ وجاء بالإفراد فى قوله ﴿ فتشقى ﴾ .

ذلك لأن الرجل بحكم الفطرة التى جعل الله الناس عليها هو الذى يكد ويكدح ، ويلاقى من النصب والوصب ما يلاقى ، وأنت يا آدم فى تلك الجنة فى رغد وراحة .

﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ : ذلك لأن العُرى يكسب الجسم برودة ، مما يدعو إلى شدة الجوع .

﴿ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ : ذلك لأن حرارة الشمس تدعو إلى شدة الظمأ بإفراز ما فى الجسم من عرق . فناسب ذلك أن يجمع بين الجوع والعُرى ، وبين الظمأ والحر .

﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ : وذلك لما يعلمه إبليس فى الإنسان من حب الخلود والملكية ، فكل إنسان يحب الحياة مهما كان هواؤ ها سموماً ، وطعامها ذقّوماً ، وماؤ ها أسناً ، لكن الناس يختلفون فى ذلك الحب ، فأشد الناس حباً للحياة هم اليهود ، الذين تحداهم الله تعالى بقوله : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(٢) .

وما زال إبليس بهما حتى قاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، قال تعالى : ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ﴾ .

فقد فطر الله الإنسان على ستر عورته . من أجل ذلك أخذ يضعان ورقة على ورقة من ورق الأشجار فى الجنة حياء من كشف العورة .

﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ : أى خالف ما عاهد الله به إليه بألا يقرب تلك الشجرة . فوقع فى الغواية التى وسوس بها إليه عدو الله إبليس ، وإنما سميت معصية لأنها من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وما وقع آدم فيها إلا عندما نسى ، ومن ثم فقد قرن الله تعالى العهد بالتذكر فى قوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ذالكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾(٣) .

ولقد تلقى آدم بعد ذلك كلمات من ربه فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ، والكلمات جاءت فى قوله تعالى : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾(٤) .

---

(١) الايتان ٦ ، ٧ من سورة الجمعة .
(٢) الآية ٩٦ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (حاج موسى آدم فقال له أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى أو قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى - قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى)[١] .

وهذا الحديث له طرق فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن يزيد بن هرمز قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : (احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك . قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء ، وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتبت التوارة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى ؟ قال : نعم . قال : أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة - قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ :

وهكذا يقبل الله التوبة عن عباده ، فإن رحمته سبقت غضبه : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين * ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين * وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾[٣] .

إن آدم هو النموذج الكبير لأبنائه ؛ لم يكن دخوله الجنة عبثا إنما ليبعث الله فى نفسه الشوق إليها فيشتاق أبناؤه إليها ، وما كان أكله من الشجرة عبثا ، لأنه خالف وسوف يتوب ، فيتوب الله عليه ، وكذلك أبناؤه سيخالفون فيتوبون فيتوب الله عليهم .

وهكذا اقتضت حكمة الله العليا ومشيئته العظمى أن يدخل آدم الجنة ويأكل من الشجرة ويتوب إلى الله فيتوب الله عليه : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[٤] . ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[٥] ، ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٠ : ٣ ، والترمذى فى القدر : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٨٧ ، ٣١٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣١ ، وفى التوحيد : ٣٧ ، ومسلم فى القدر : ١٣ ، ١٥ ، وأبو داود فى السنة : ١٦ ، ١٧ ، والترمذى فى القدر : ٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٩٨ .

(٣) الآيات ٥٣ - ٦١ من سورة الزمر . (٤) الآية ٤٩ من سورة الحجر . (٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[١] .

وقال عز من قائل : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ﴾[٢] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[٣] .

وقال عظمت حكمته : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[٤] .

وقال تقدس اسمه : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾[٥] .

وقال وسعت رحمته : ﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[٦] .

يارب :

يا من يجيب دعا المضطر فى الظلم ... ويكشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما عملوا ... فمن يجود على العاصين بالكرم

يا من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه . ارحمنا فإنك بنا راحم . ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، وألطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شئ قدير .

أصبحت ضيف الله فى دار الرضا ... وعلى الكريم كرامة الضيفان
تعفو الملوك عن النزيل بساحهم ... كيف النزول بساحة الرحمن
يا من إذا وقف المسىء ببابه ... ستر القبيح وجاد بالإحسان
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى ... تعفو وتصفح للعبيد الجانى
حاسبت نفسى لم أجد لى صالحاً ... إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى علىّ فلم أجد ... فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعالى كلها ... ويلى إذاً من وقفة الديّان
يا أيها الأخوان إنى زائل ... مهما يطل من عمرى فإنى فان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى ... من للمسىء المذنب الحيران
نوح الحمام على الغصون شجانى ... ورأى العزول صبابتى فبكانى
إن الحمام ينوح من ألم النوى ... وأنا أنوح مخافة الديان

(١) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء .
(٢) الآية ٣١ من سورة النساء .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٥) الآية ٦٤ من سورة النساء .
(٦) الآية ١١٠ من سورة النساء .

يا واحداً فى ملكه ماله ثانى يا من إذا قلت يا مولاى لبانى
أنسى فتذكرنى فى كل نائبة فكيف أنساك يا من لست تنسانى
أنا إن بكيت فلن ألام على البكى فلطالما استغرقت فى العصيان
يا رب عبدك من عذابك مشفق بك مستجير من لظى النيران
فأرحم تضرعه إليك وضعفه وامنن عليه اليوم بالغفران

قوله تعالى : ﴿ **قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ .

وهكذا أمر الله آدم وحواء أن يهبطا من الجنة إلى الأرض ، وبين الطريق القويم إلى الجنة ونعيمها . فحذر آدم وذريته من عداوة إبليس لهم ، قال : ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ ، كما قال سبحانه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[(١)] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[(٢)] .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾[(٣)] .

نعم هذا صراط مستقيم ، فالطريق لائح ، والمنادى صائح ، والحق واضح .

﴿ **فإما يأتينكم منى هدى** ﴾ وذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإرشاد العقل . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[(٤)] .

﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾[(٥)] .

وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[(٦)] .

---

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة يس .
(٤) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .
(٥) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٦) الآية ٤١ من سورة النحل .

وقال عز من قائل : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(١) .

وقال عز من قائل : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(٢) .

فالله تعالى يعطى الجزاء فى الدنيا والآخرة : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ أى فى الدنيا فإذا أراد الله بقوم قحط نادى مناد من قبل الله : يا أمعاء اتسعى ، يا بركة ارتفعى ، يا عين لا تشبعى .

﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ : مع أهل الضلال ، كما قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾(٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ، وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾(٤) .

وقال عز من قائل : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾(٥) .

﴿ **قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ : أى لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها ، وأعرضت عنها ، وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك .

فهو وإن كان بصيرا فى الدنيا بعينيه ، إلا أنه كان أعمى بقلبه ، قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(٦) .

﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾(٧) . أى عمى القلب فى الدنيا ، فبعث صاحبه أعمى يوم القيامة ، وذلك لأن ابن عباس رضى الله عنهما لما كف بصره قال :

إن أذهب الله من عينى نورهما ... ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقلى ذكى وقلبى ما حوى دخلا ... وفى فمى صارم كالسيف شهور

ولذا قيل إن الله يعوض عن نور البصر ذكاء القلب :

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم ... وليس بعيب أن يقال ضرير
إذا أبصر المرءُ المروءة والوفى ... فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً وزخراً وعصمة ... وإنى إلى تلك الثلاث فقير

قوله تعالى : ﴿ **كذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ :

---

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(٣) الآية ٩٧ من سورة الإسراء .
(٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة مريم .
(٥) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ٤٦ من سورة الحج .
(٧) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

يقول تعالى : وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾[١] .

ولهذا قال : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ : أى أشد ألماً من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **أفلم يهد** ﴾ : لهؤلاء المكذبين بما جئتهم يا محمد ﴿ **كم أهلكنا** ﴾ من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ، ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيما يمشون فيها . ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ : أى العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[٣] .

وقال تعالى فى سورة السجدة : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾[٤] .

ثم قال جل شأنه : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى** ﴾ : أى ولولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة .

ولهذا قال لنبيه مسلياً له : ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ أى من تكذيبهم لك ، ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس** ﴾ يعنى صلاة الفجر ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ يعنى صلاة العصر .

كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)[٥] ، ثم قرأ هذه الآية .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عمارة بن رؤيبة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)[٦] . رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الرعد .

(٢) أخرجه مسلم فى اللعان : ٤ ، وأبو داود فى الطلاق : ٢٧ ، والترمذى فى تفسير سورة : ٢٤ : ٢ ، وفى الطلاق : ٢٢ ، والدارمى فى النكاح : ٣٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣١ ، وفى ٢ : ١٩ .

(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج .

(٤) الآية ٢٦ من سورة السجدة .

(٥) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى المواقيت : ١٦ ، ٢٦ ، وفى تفسير سورة ٥٠ : ٢ ، وأبو داود فى السنة : ١٩ ، والترمذى فى الجنة : ١٦ ، ١٧ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ .

(٦) أخرجه مسلم فى الصلاة : ١٣ ، ٢١ ، وفى المساجد : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وأبو داود فى الصلاة : ٩ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٣٦ ، ٢٦١ .

وفى المسند والسنن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى فى اليوم مرتين)(١) .

وقوله : ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أى من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء .

﴿ وأطراف النهار ﴾ : فى مقابلة آناء الليل ، ﴿ لعلك ترضى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٢) .

وفى الصحيح : (يقول الله تعالى : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : إنى أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً)(٣) . وفى الحديث الآخر : (يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا من النار ويدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهى الزيادة)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ :

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادى الشكور .

وقال مجاهد : أزواجاً منهم ـ يعنى الأغنياء ـ فقد أتاك خيرا مما آتاهم .

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك ﴾(٥) الآية .

وكذلك ما أدخره الله تعالى لرسوله ﷺ فى الآخرة أمر عظيم ، لا يحد ، ولا يوصف ، كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٦) .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٨٣ .
(٢) الآية ٥ من سورة الضحى .
(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٥١ ، وفى التوحيد : ٣٨ ، ومسلم فى الجنة : ٩ ، والترمذى فى الجنة : ١٨ .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١٣ .
(٥) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الحجر .
(٦) الآية ٥ من سورة الضحى .

اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء . فقال له رسول الله ﷺ : (ما يبكيك يا عمر ؟) فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه ؟ فقال : (أو فى شك أنت يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا)[١] .

فكان ﷺ أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها ، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا فى عباد الله ، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد .

قال ابن أبى حاتم : أنبأنا يونس أخبرنى ابن وهب أخبرنى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

(إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا) . قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : (بركات الأرض) .

وقال قتادة والسدى : زهرة الحياة الدنيا : يعنى زينة الحياة الدنيا .

وقال قتادة : ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ : لنبتليهم .

وقوله : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ : أى استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾[٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلى فيها ، فربما لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة كما كان يقوم ، وكان إذا استيقظ أقام ، يعنى أهله ـ وقال : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ .

وقوله : ﴿ **لا نسألك رزقا نحن نرزقك** ﴾ : يعنى إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب .

كما قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . إلى قوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **لا نسألك رزقا نحن نرزقك** ﴾ .

وقال الثورى : لا نسألك رزقا ، أى لا نكلفك الطلب .

---

(١) أرجه البخارى فى المظالم : ٢٥ ، وفى الجنائز : ٢٥ ، ومسلم فى الرضاع : ١٠١ ، وفى الطلاق : ٣٦ ، والترمذى فى سورة : ٦٦ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٢ : ٢٩٨ .

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .

(٣) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٤) الآيات ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، عن هشام ، عن أبيه ، أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفا رجع إلى أهله فدخل الدار فقرأ : ﴿ **ولا تمدن عينيك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **نحن نرزقك** ﴾ .

ثم يقول : (الصلاة ، الصلاة ، رحمكم الله) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدُ الله بن أبى زياد القطرانى ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر عن ثابت ، قال : (كان النبى ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله : يا أهلاه ، صلوا ، صلوا) .

قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وقد روى الترمذى وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة ، عن أبيه ، عن أبى خالد الوالبى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك)(١) .

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك ، عن الأسود ، عن ابن مسعود : سمعت نبيكم ﷺ يقول : (من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ، ومن تشبثت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديته هلك)(٢) .

وروى أيضا من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد ابن ثابت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة)(٣) .

وقوله : ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ : أى وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة - وهى الجنة - لمن اتقى الله .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع ، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى * ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى * قلْ كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى** ﴾ .

من أقاويلهم الباطلة ، وافتراءاتهم على الله ورسوله : أنهم قالوا : هلا يأتينا محمد بآية كآيات الأنبياء السابقين كناقة صالح ، وعصا موسى ، حتى نصدقه فى دعواه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ ، وفى الزهد : ٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٢ .

(٤) أخرجه مسلم فى الرؤيا : ١٨ ، وأبو داود فى الأدب : ٨٨ .

فجاء الرد الحاسم القاطع الجازم منه سبحانه وتعالى : **﴿ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾** وهو القرآن الكريم .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾(١) .

إن القرآن هو المعجزة الخالدة الدائمة الباقية ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفيه البينة الواضحة ، والحجة الساطعة ، والبراهين القاطعة على صدق الرسالات السابقة ؛ فكيف تجحدون تلك البينة ، يا من تجادلون بالباطل لتدحضوا به الحق .

قوله تعالى : **﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾** .

وخلاصة ما فى هذه الآية :

إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم ، لقالوا : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن يهلكنا ، حتى نؤمن به ونتبعه ، لكنا لم نهلكهم قبله ، فانقطعت معذرتهم .

قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾(٣) .

وقال عظمت حكمته : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾(٤) .

---

(١) الآيات ٥٠ ـ ٥٢ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٥ من سورة الإسراء .
(٤) الآيات ٦ ـ ١١ من سورة الملك .

والاعتراف كما يقولون سيد الأدلة ، والإقرار حجة مقصورة على المقر .

قوله تعالى :

﴿ قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ :

خطاب كريم من رب كريم لرسول كريم : قل لهؤلاء المعاندين الجاحدين ﴿ اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون ﴾[1] . فستعلمون غدا من الكذاب الأشر ، وستعلمون من أصحاب الصراط المستقيم ومن اهتدى إلى طريق النجاة والفوز والسعادة والصلاح ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2] .

---

(١) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ من سورة هود .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .